ردمد ١٦٠٧-٢٠٨١

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الرابعة عشرة : العدد الرابع والخمسون - جمادى الآخر ١٤٢٧ هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٦ م

الورقة الأولى من مخطوط «رسالة في تعليم النساء»
لمحمد صبغة الله بن محمد غوث بن ناصر الدين (ت ١٢٨٠ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى اما بعد

فهذا جزء في بيان تعليم النساء الكتابة هل هو جائز

من غير كراهة او مكروه او ممنوع وقد استدل

من منع ذلك باحاديث منها ما رواه الحاكم

في المستدرك في تفسير سورة النور قال ثنا

ابو علي الحافظ ثنا محمد بن سليمان ثنا عبد الوهاب

بن الضحاك ثنا شعيب بن اسحق الدمشقي عن

هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة رضي الله عنها

قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوهن

الغرف ولا تعلموهن الكتابة يعني النساء وعلموهن المغزل

وسورة النور قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد

ولم يخرجاه يعني الشيخين وعزاه الحافظ ابن حجر

العسقلاني في تسديد القوس الى ابن مردويه ايضا

First page from the manuscript "Reesala fi Taaleem Al-Nisa"
To Mohammad Sabghatu'llah Bin Mohammad Bin Naser AL Din
(Dead in 1280 A.H).

قصيدة الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين

للقاضي محمد بن عبد العزيز الكاليكوتي دراسة وتحليل

د. أبو بكر محمد
جامعة كاليكوت - الهند

القاضي محمد الأول:

ولد القاضي محمد لأبوين كريمين، في بيت عز وعلم، في بيت القضاة، في كاليكوت عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م. وتمتد جذور أسرته العريقة إلى المدينة المنورة، إلى أحد أصحاب رسول الله (ﷺ). فهو محمد بن عبد العزيز القاضي بن العلامة شهاب الدين أحمد القاضي ابن القاضي أبي بكر فخر الدين بن القاضي زين الدين رمضان بن القاضي موسى بن القاضي إبراهيم بن القاضي محمد بن مالك بن حبيب بن مالك بن محمد الأنصاري المدني، أحد أصحاب رسول الله (ﷺ)"[1].

كان القاضي محمد متقد القريحة، حاد الذهن ثاقب البصيرة، قوي الذاكرة، ورعًا تقيًّا. بدأ تعلمه على أبيه القاضي عبد العزيز والشيخ العلامة عثمان لبا القاهري، والشيخ عبد العزيز آل مخدوم المعبري. تعلم فروع العلم الشرعي؛ الحديث والتفسير والفقه وأصول الفقه وعلم الفلك والنجوم والفلسفة. وكان يتمتع بمهارة نادرة في تحديد جهة القبلة. كان ضليعًا في علم التصوف، وعاش حياة الزهاد والعباد في تقشف وبساطة.

كان أبوه القاضي عبد العزيز عالمًا كبيرًا وقاضيًا في كاليكوت. وكان شجاعًا مغوارًا متمرسًا في فنون الحرب والقتال. وكان مستشار الملك السامري في حروبه مع البرتغاليين. وورث ابنه محمد من أبيه شهامته وشجاعته، نبله ونخوته، كما ورث عنه العلم والقضاء. وتولى القضاء في كاليكوت في نحو ١٠١٦هـ/١٦٠٧م. وكان محمد

القاضي يرى الاختلاط بالناس والمشاركة في الحياة العامة. وكان يرى أيضًا أنّ على القضاة أن يكونوا قدوة حسنة للمسلمين في كل شؤون الحياة، ومن ثم، حمل السلاح، وخاض غمار الحرب ضد المعتدين البرتغاليين. وكان في مقدمة المحاربين من القضاة والقادة المسلمين، أمثال الشيخ ماموكويا الكاليكوتي والقاضي محيي الدين والشيخ عبد العزيز آل مخدوم المعبري[٢].

وكان القاضي محمد، إلى جانب علمه وورعه، يتمتع بملكه شعرية وبراعة فريدة في نظم القصائد. وجاءه الشعر منقادًا، تناول فيه شتى العلوم والفنون والمسائل الفقهيّة العويصة والقواعد النحويّة والمفردات اللغويّة. ويدل على مهارته الشعرية تطويعه كلمات أعجمية نابية، وبخاصة أسماء الأشخاص والأماكن وصياغتها في قالب الشعر العربي.

وقد نسب إلى القاضي محمد أكثر من خمسين كتابًا، إلا أنَّ معظمها جار عليها الزمان، ولم يبق منها إلا القليل، ومنها:

١) الدرر الفصيحة في الوعظ والنصيحة.

٢) قصيدة" إلاكم أيها الإخوان" في نصيحة الإخوان.

٣) الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين.

٤) نظم قطر الندى.

٥) منظومة الأجناس.

٦) منظومة في علم الحساب.

٧) منظومة في تجويد القرآن.

٨) منظومة في علم الأفلاك والنجوم.

٩) منظومة في الرسائل والخطوط.

١٠) مقاصد النكاح.

١١) منتخبات الفرائض.

١٢) منظومة في الخطوط والرسائل.

١٣) منظومة في العوامل.

١٤) مدخل الجنان.

وقد روي غير ذلك أيضًا. ومن أهم مؤلفاته" مقاصد النكاح" الذي يتناول فيه بالتفصيل كل جوانب الحياة الزوجية ومسائلها، كما أنّ أشهر أعماله قصيدته الرائعة الجمال "محيي الدين مالا" التي يعدد فيها مناقب شيخ طريقته الصوفية،،الطريقة القادرية، الشيخ عبد القادر الجيلاني. والقصيدة في اللغة العربية – مليالم.

والجدير بالذكر أنّ الذي دفعه إلى نظم هذه القصيدة المطوّلة أنه رأى قومه يتنازعون ويتناحرون باسم الطرق والمشايخ الصوفيّة، فأراد أن يجمعهم على طريقة واحدة- الطريقة القادرية- ويحقق بذلك توحيد صفوف المسلمين ولمّ شعثهم.

توفي القاضي محمد الأول في ١٥ ربيع الأول ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م، ودفن في مقابر المسلمين في مسجد KUTTICHIRA في كاليكوت.

ثلاثية الجهاد والمكان:

كان القرن السادس عشر الميلادي حقبة حرج وتوتر في تاريخ المسلمين في مليبار، حيث شهدت حروبًا دامية ومواجهات عنيفة متتالية بينهم وبين البرتغاليين، وذلك أنَّ الاستعمار البرتغالي الحانق على الإسلام والمسلمين ظلّ منذ أن وطئت أقدامه تربة مليبار يحارب المسلمين ويحاول إبادتهم، يصادر أملاكهم وينهب أموالهم، يهتك أعراضهم ويخدش مشاعرهم، يهين أشرافهم ويفضح

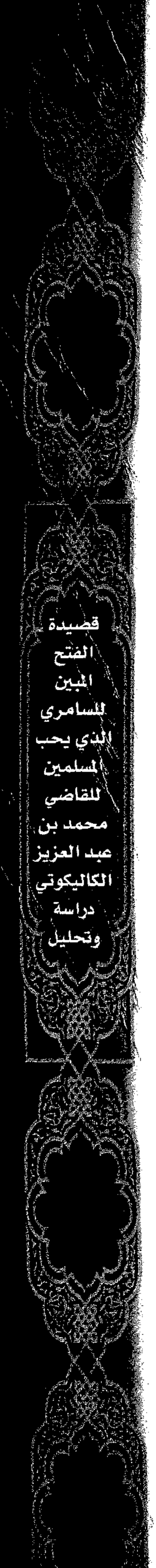

أعلامهم، يدمر مساجدهم ويحرق مدارسهم. فتضرر المسلمون من تلك القلاقل والفتن التي آثارها الاستعمار البرتغالي أيما تضرر، في كل شؤون حياتهم، في أمنهم وسلامتهم، في عقائدهم وشعائرهم، كما ضاق من الاستعمار البرتغالي حكام مليبار ورعاتها. وانتفضت مليبار انتفاضة رجل واحد، وانتفض المسلمون، عامتهم وخاصتهم، علماؤهم وبسطاؤهم، ضد هذا العدوان البرتغالي الغاشم، وكتب الكتاب وخطب الخطباء، وكتبت الرسائل إلى رؤساء البلاد الإسلامية وسلاطينها، تشرح سوء حال المسليمن وتندب سوء حظهم، وتحث المسلمين على الجهاد وبذل النفس والنفيس في الذود عن حماهم ومقدساتهم في مليبار. وكانت كتب وقصائد، أهمها تلك الثلاثية الجهادية؛ قصيدة "تحريض أهل الإيمان على جهاد عبدة الصلبان" لشيخ الإسلام أبي يحيى زين الدين الفناني المليباري آل مخدوم، و"تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين" للشيخ زين الدين بن محمد الغزالي الفناني المليباري آل مخدوم، وقصيدة "الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين" للقاضي محمد الأول الكاليكوتي، التي نحن بصدد دراستها وسبر أغوارها واستكناه معانيها وأفكارها. وقد أفاضت هذه الثلاثية في تفاصيل تلك الأحداث. وجرت سلسلة معارك حامية الوطيس بين الملیباريين والبرتغاليين، شارك المسلمون فيها مشاركة غيّرت مجرى التاريخ. يقول Dr. K.K.N. Kurup، مدير جامعة كاليكوت سابقًا، والباحث الضليع في التاريخ المليباري: "إنَّ الحروب المتتالية، التي جرت هنا على أرض كيرالا في القرن السادس عشر الميلادي ضد البرتغاليين، من أجل الحفاظ على حرية الملاحة في البحر العربي وسواحل كيرالا، صفحة مهمّة في التاريخ السياسي لكيرالا. إنَّ المشاركة الباسلة للمسلمين في تلك المعارك، تحت قيادة الملك السامري، عنصر مهم غيّر مجرى التاريخ الهندي في العهد الوسيط. وبفضل هذه المواجهات التي استمرت قرنًا من الزمان لم تنقلب كيرالا مستعمرة برتغالية مثل غوا (Goa)"[٣]. وكل هذه المواجهات والمعارك الحربية كان مركزها ومدارها منطقة صغيرة تضم ثلاث مدن تاريخيّة، هي كاليكوت، وبيبور، والشاليات.

مدينة كاليكوت (Calicut)

كاليكوت مدينة ساحلية، يبلغ طولها ٨ كيلومترات. كانت تدعى "كويل كوتا"، وسمتها العرب "كاليكوت"، والصينيون "كوليفو"، والإنجليز "كاليكت". وتعرف في وثائق السلطان تيبو بـ:"فوركي"[٤]. ولم تكن معروفة ذائعة الصيت قبل أن تصير حاضرة مملكة السامري، وذلك في القرن الثاني عشر الميلادي. وتطورت كاليكوت إلى منطقة آهلة ومدينة تجارية وصناعية كبرى بفضل سياسة الملك السامري المتسامحة وتشجيعه التجار العرب، وتيسير سبل التجارة والراحة لهم في تلك الديار. وكان الملك السامري متعاطفًا جدًّا مع المسلمين، بل أصدر مرسومًا ملكيًا يأمر "بإسلام واحد أو أكثر من كل أسرة هندوسية تحترف الصيد"[٥]. ويشهد الرحالة العربي ابن بطوطة تطور كاليكوت ومكانتها والحركة التجارية فيها، حيث يقول: "ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط، وهي أحد البنادر العظام ببلاد المليبار، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان، والمهل وأهل اليمن وفارس، ويجتمع بها تجار الآفاق، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا. وسلطانها كافر يعرف بالسامري .. وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر، من أهل البحرين، فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار ويأكلون في سماطه، وقاضيها فخر الدين

عثمان، فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور... وبهذه المدينة الناخوذة مثقال، الشهير الاسم، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس"[٦]. ويصف بندر كاليكوت ويقول:" ثم سافرنا إلى مدينة هيلي، فوصلنا بعد يومين، وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار، وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين، ولا تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقالقوط"[٧]. وكان ذلك البندر المشهور في المكان الذي يقوم فيه الآن مستشفى الشاطئء (Beach Hospital)، وقد تهدم الميناء تمامًا، ولم يبق منه إلا جسر منهار، كما كان قصر الملك السامري يقوم في الموقع الذي يقوم فيه الآن المستشفى العام، بجوار مسجد محيي الدين المشهور وسط مدينة كاليكوت.

وليس معلومًا بالتحديد متى بدأ المسلمون يسكنون مدينة كاليكوت، ولكن الظاهر أنهم سكنوها في أوائل القرن الأول الهجري. يقول: Nilakanta Sastri" وكانت أول سفينة للمسلمين تسافر في المحيط الهندي تلك التي أرسلها والي البصرة أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، تحمل جيوش المسلمين إلى تانه. (وكان ذلك في ١٥هـ/٦٣٦م، وتحت قيادة الحكم بن أبي العاص الثقفي). ولكن عمر لم يوافق على ذلك.ولم يمض زمن كثير بعد ذلك حتى جاء المسلمون، لعلاقاتهم القديمة، ونزلوا واستوطنوا أماكن مختلفة من الساحل المليباري، وتزوجوا من نساء مليبار. ويعرف أبناؤهم بلقب "مابلا". وكان الملوك الهندوس يرحبون بهؤلاء التجار ويشجعونهم ويستقدمون منهم الخيل التي يحتاجون إليها في جيوشهم، ويستعينون بهم في أساطيلهم البحرية"[٨]. وقد روى البلاذري خبر هذه الحرب حيث يقول:" أخبرنا علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف قال: ولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان سنة ١٥، فوجّه أخاه الحكم إلى البحرين، ومضى إلى عمان، فأقطع جيشًا إلى تانه، فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك، فكتب إليه عمر يا أخا ثقيف حملت دودًا على عود، وإني أحلف بالله أنهم لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم، ووجه الحكم أيضًا إلى بروص، ووجه أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى خور الديبل.."[٩]. وقد اختلف في موقع مدينة تانه هذه. المصادر التاريخيّة عامة ترى - لقربها من ديبل- أنها في الساحل الغربي لولاية مهاراشترا، قريبًا من بومباي، إلا أنَّ وي. أي أحمد كبير يصر[١٠]. على أنها في مليبار قريباً من كنوز، ويربط بين تلك الحملة وبين المملكة الإسلامية الوحيدة في مليبار "أراكل"، كما ينكر أن تكون تانه القريبة من بومباي هي تانه المذكورة في التاريخ بعدة أدلة. ويرى أنَّ الحكم حين تلقّى رسالة عتاب من الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عاد بجيشه تاركًا الولاية لمحمد علي الذي كان يحكم تلك المنطقة الصغيرة. وقد ثبت أن مملكة " أراكل" قامت عام ١٥هـ[١١].

ويؤسس إنكاره على معرفته الشخصية حيث إنّه ذهب في يونيو عام ١٩٩٢ إلى تانه؛ ليتعرفها، ويتأكد هل هي تانه التي قاد إليها الحكم جيشه، وعرف أن تانه ليس لها تاريخ إسلامي إلى أبعد من ١١٠٠ سنة، حيث إن أقدم مسجد فيها هو مسجد مهاغري الجامع. وقد تم ترميمه ما بين ١٩٨٥و ١٩٩٠م، وكان قد نقش على عارضة باب المسجد القديم أنه بني في ٣٠٠هـ. وفي حين كان في تانه في مليبار مسلمون عام ١٥ للهجرة، بل كانت هناك

مملكة إسلامية تحب إمارة محمد على آزي راجا - كما سبق[١٢]، وإذا ثبت هذا - ونرى أنه يحتاج إلى مزيد من التحقيق والتوثيق - فإنّ الإسلام السياسي والعسكري قد وصل هذه الديار جنبًا إلى جنب مع الإسلام السلمي عن طريق التجارة والدعاة.

ومنذ ذلك الوقت ظل الإسلام ينتشر في أرجاء مليبار، بما فيها كاليكوت وما حولها، انتشارًا مطردًا. ولكن لم تحفظ لنا الأيام تلك الأوراق التي سجلت فيها تاريخ الإسلام في مليبار منذ ذلك العهد السحيق.

ونصل إلى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، حيث ينزل الداعية البصري الجليل مالك بن دينار، والوفد المرافق له في مليبار - كما سيأتي تفصيله - في نحو ١٢٠ للهجرة، ويبدؤون يدعون الناس إلى دين الإسلام، في المناطق الساحلية الغربية لمليبار، وقامت في عدة مدن ساحلية تجمعات وكتل سكانيّة مسلمة، كان منها كاليكوت وشاليات وبيبور، وبني أول مسجد في منطقة كاليكوت في مدينة شاليات الساحلية، التي تبعد عن مدينة كاليكوت ٩ كيلومترات فقط. واستقر بعض أعضاء الوفد المرافق لمالك بن دينار في هذه الديار واستوطنوها، يعلمون الناس أمور دينهم، ويدعونهم إلى الإسلام. وعين زين الدين المدني- حفيد مالك بن حبيب - قاضيًا في شاليات، وزين الدين بن مالك بن حبيب في فندرينة (Kollam- Pantalayani) وكان المسلمون في كاليكوت يتجهون إلى شاليات في أمور دينهم. وبهذا يعدّ الشيخ زين الدين المدني أول قاض في كاليكوت.

ويروى أن سلسلة القضاة في كاليكوت وتاريخ الدعوة الإسلامية فيها من القاضي الأول كان مدونًا في كتب وصحائف احتفظ بها في مسجد شاليات، إلا أنَّ البرتغاليين سرقوها أو أحرقوها حين أحرقوا المسجد الجامع هناك؛ لبناء قلعتهم في شاليات. وانقطعت الأخبار بعد ذلك قرونًا طويلة، وعندما زار الرحالة العربي ابن بطوطة كاليكوت كان القاضي فخر الدين عثمان. وكان من معاصريه في كاليكوت الغني الكبير ناخوذة مثقال. والمسجد الذي بناه مثقال لا يزال معروفًا باسمه. وعاصره أيضًا التاجر البحراني إبراهيم شاه بندر، والعارف الصوفي الشيخ شهاب الدين كازروني. وقد صرح بذلك كلّه الرحالة ابن بطوطة- كما سبق أن ذكرنا. وكان علماء شاليات في أغلب الأحيان هم الذين يتولون القضاء في كاليكوت. وكان في كاليكوت أيضًا علماء كبار وقضاة أجلاء. ويروى أنّ الملك المليباري الذي أسلم وهاجر إلى مكة عين قاضيًا للمسلمين في كاليكوت.

وكانت عادة الأسرة المالكة في كاليكوت "السامري" - لعدة قرون - أن يعينوا قاضيًا للمسلمين، وكان للقاضي مكانة مرموقة في قصر الملك، وكان يُجرى له راتب شهري، كما كان يتمتع بصلاحيات أخرى. هؤلاء القضاة الذين ينظرون في قضايا المسلمين ويحكمون فيها.

وسلسلة القضاة في كاليكوت - منذ فخر الدين عثمان - معروفة. وقد خلف فخر الدين عثمان على منصب القضاء الشيخ محمد ضياء الدين. وخلفه الشيخ إبراهيم بن محمد بن الشيخ محمد ضياء الدين. ولم يعرف عنه إلا أنه كان جدًّا لأحد أساتذة الشيخ زين الدين آل مخدوم، وغالب الظن أن مقرّه كان في شاليات. ثم جاء موسى بن إبراهيم، وخلفه رمضان بن موسى، ثم أبو بكر بن رمضان، ثم شهاب الدين أحمد بن أبي بكر، ثم عبد العزيز بن شهاب الدين ثم علي الناشري بن عبد العزيز

ثم محمد بن عبد العزيز الذي أصبح قاضي كاليكوت بعد وفاة أخيه علي الناشري. والقاضي محمد هذا هو الذي ألّف قصيدة "الفتح المبين" التي نحن بصدد دراستها. وسلسلة القضاة بعده متصلة إلى هذا اليوم. والقاضي في كاليكوت حاليًّا هو محسن شهاب الدين بن سيد شهاب الدين الذي لا يزال قاضيًا في كالكيوت من ربع قرن.

بيبور: (BEYPUR)

بيبور مدينة ساحلية وميناء قديم قريب من مدينة كاليكوت، تبعد عن قلب المدينة نحوًا من عشرة كيلومترات. استوطنها المسلمون من فنان (Pinnani) وشاليات. والمساجد في بيبور- عامة- من أعمال أسرة آل مخدوم الفنانية. اشتهرت بيبور بصناعة السفن وصيد السمك. ويروى أنَّ الملك جيرامان برومال استصنع السفينة التي سافر فيها إلى مكة من بيبور. وهناك في بيبور من يفتخر بأنه من سلالة النجار الذي صنع السفن لذلك الملك، ويقال إنَّ نفرًا من الناس من بيبور رافقوا الملك جيرامان برومال في رحلته إلى مكة. (ونرجو أن نوفق إلى العودة إلى "صناعة السفن في بيبور" في مقال مستقل - إن شاء الله). ويروى أنَّ الهدايا التي أرسلتها بلقيس ملكة سبأ إلى الملك سليمان في ٩٩٠ قبل الميلاد كانت تضم التحف المصنوعة في مليبار، وبالطبع في بيبور؛ لأنّ بيبور كانت - ولا تزال - معروفة بتجارة الأخشاب وتصديرها، والساج بالذات. وقد وُجد أثاث من الساج في معبد القمر في أور وقصر الملك بخت نصر. " وكان سرير رسول الله (ﷺ) الذي ينام عليه مصنوعًا من خشب الساج، وقد ظل يستعمله حتى وفاته، ومن بعده صار من الآثار التي يتبرك بها، فكان يحمل عليه الأموات إلى القبر، كما استعمل خشب الساج في سقف الحرم وسقوف المنازل عامة"[١٣].

ويرى المؤرخون المليباريون عامة أن أوفير التي ذكرت في التوراة بأن سفنًا للملك سليمان كان تقصدها في مدينة بيبور هذه. "وهناك من العلماء من يظن أن أوفير المذكورة في التوراة هي إحدى مراكز شعب أبيرا (غجرات)"[١٤]. ويرى Wiliam Logan " أن بيبور أقرب إلى الصفات التي وصفت بها أوفير[١٥]، كما يرى Nilanta Satri أن منطقة (Gujrat) الحالية هي التي يمكن أن تكون أوفير[١٦]، وهناك آخرون يرون آراء مماثلة[١٧].

ونرى أنّ كل هذه الآراء بعيدة عن الصواب، كما صرح به بعض المؤرخين المليباريين أنفسهم. يقول: P.K.Gopalakrishnan

إن هذه الآراء ليست صحيحة؛ لأنَّ تجارة الغرب مع الهند كانت عن طريق العرب الوسطاء، فلا بد أنَّ البضائع الهندية كانت تصل إلى الشرق الأوسط عن طريق الجزيرة العربية"[١٨]. والأقرب إلى الصواب والمعقول أنَّ أوفير بالمملكة العربية السعودية- كما ذهب إليه الدكتور محمد بيومي مهران" وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن" برترام توماس" إنما يذهب إلى أنَّ آبار" العويفره" القريبة من " القرية" إنما هي موضع " أوفير" التي أرسل إليها سليمان ملك اليهود " حيرام" ملك صور بأساطيلهما لإحضار الذهب والأخشاب النفيسة وكل ما هو نادر وغريب، وأن الاسم العربي القديم إنما هو "عفرة"، وقد تحرف بالنقل إلى العبرانية واليونانية، فصار.Ophir وهذا موضع قريب من مناجم الذهب[١٩]. ويقول أيضًا: " كما أشارت المؤلفات اليونانية إلى المنطقة ما بين القنفذة وعتودة. ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين - كما أشرنا من قبل - إلى أنها " أوفير" التي أشارت إليها التوراة على أنها مورد الذهب لسليمان"[٢٠]. وهذا الرأي لا ينقص شيئًا من مكانه بيبور الصناعية والتاريخيّة.

شاليات : (Shaliyam)

شاليات مدينة صناعية قديمة، تبعد عن مدينة كاليكوت ١٦ كم، وتقع على شاطئ نهر شاليار. وربما اتخذت اسمها من كلمة (شاليار) الطائفة التي تحترف النسج. وكانت مشهورة بصناعة الثياب. وكانت من أولى مقار المسلمين في مليبار، حيث بنى فيها حبيب بن دينار مسجدًا سنة ١٢١هـ. وهي منطقة كثيرة المساجد والمعاهد التعليمية. وقد زارها الرحالة العربي ابن بطوطة وشهد بشهرتها الصناعية. "وسافرت في البحر إلى هنور ثم إلى ...وقد تقدم ذكرها جميعها. ثم إلى مدينة الشاليات، مدينة من حسان المدن، يصنع بها الثياب المنسوبة لها، وأقمت بها فطال مقامي فعدت إلى قالقوط"[٢١].

وبعد هذه التوطئة نبدأ دراسة القصيدة.

قصيدة الفتح المبين:

هذه القصيدة "الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين" ملحمة شعرية في ٥٣٧ بيت، قالها القاضي محمد الأول للتعبير عن فرحة المليباريين عامة والمسلمين خاصة، في انتصارهم على البرتغاليين وابتهاجهم في الاستيلاء على قلعتهم في الشاليات.

أهمية القصيدة:

تكمن أهمية هذه القصيدة في عدة جوانب؛ أنها وثيقة دقيقة لمرحلة حساسة من تاريخ هذه الديار، وهي مرحلة الاستعمار البرتغالي (١٤٩٨-١٥٧١م)، وسرد مفصل ومؤثر لوقائع تلك المرحلة وأحداثها وسجل صادق للمواجهات العنيفة بين الطرفين. ويأتي صدق هذا البيان وأثره البالغ من أنّ الشاعر خاض التجربة بنفسه، وجال في ساحة الوغى وصال. والقصيدة تصوير صادق عن الحياة الاجتماعية في تلك المرحلة الحرجة، وشهادة حق للتعايش السلمي والتعاون البنّاء بين جميع الفئات الدينيّة والعرقية، كما أنَّ الشاعر يسدي نصحًا صادقًا بأنَّ الضعيف القريب أنفع في الملمات وأجدى من القوي البعيد، وذلك أنَّ الملوك والسلاطين المسلمين في البلاد البعيدة لم يهبوا لنصرة المسلمين في مليبار ولم ينفعوهم، في حين نفعتهم الفئات الضعيفة في الديار.

تاريخ نظم القصيدة:

لم يصرح الشاعر بتاريخ نظم هذه القصيدة، ولكن الظاهر أنه نظمها نحو ١٥٧٩م، وذلك لأنّ الاستيلاء على القلعة البرتغالية في شاليات كان في سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م، ولأنّ الشاعر قد أشار في قصيدته بأسى بالغ وحزن عميق إلى معاهدة بين السلطان إبراهيم علي عادل شاه، حاكم بيجابور في الهند وبين البرتغاليين، وكانت تلك المعاهدة في ١٥٧٩م، ومات السلطان عادل شاه في السنة نفسها، ولكن الشاعر لم يشر إلى وفاة السلطان، ومن ثم نكاد نجزم بأنَّ القصيدة نظمت بعد إبرام المعاهدة، وقبل وفاة السلطان؛ أي في ١٥٧٩م نفسها.

عدد الأبيات:

عدد أبيات القصيدة، ٥٣٧ بيت، إلا أنَّ هناك من يرى أنها ٥٢٠ بيت[٢٢].

الوزن والقافية:

ولا يخفى أنَّ الشعراء لا يتعمدون اختيار الأوزان والقوافي، وإنما يوفقون إليها توفيقًا. ولكل غرض من أغراض النظم وزن وقافية تلائمه. وأفضل البحور الملائمة لنظم العلوم والتاريخ بحر الرجز. وقد اختار الشاعر وزن الرجز؛ لأنَّ قصيدته هذه

حكاية وسرد، وتفكير في العواقب وفرصة للتفكير والتريث، بتعبير أدق يؤرخ لحقبة من الأحداث.

دراسة وتحليل للقصيدة:

لقد افتتح الشاعر هذه القصيدة بحمد الله والثناء عليه بما يليق به سبحانه ، وبالصلاة والسلام على المصطفى التهامي، وقد اختار من صفات الله عز وجل ما يدل على ملكه وقدرته، وسنته تعالى في الأمم الغابرة، فهو قاصم الملوك والجبابرة، وكاسر الأقيال والأكاسرة، أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى، حيث يقول:

الحمد لله القوي القادر

المالك المفني العلي القاهر

القاصم الملوك والجبابرة

وكاسر القيول والأكاسرة

وهو الذي ما شاءه يكون

وكل ما لا فهو لا يكون

ثم صلاة الله مع سلام

على النبي المصطفى التهامي

محمد وآله الأبرار

وصحبه والتابع الأخيار

وبعد الحمد والثناء، والصلاة والسلام على الرسول يحدّد الشاعر حقيقة مضمون هذه القصيدة، كيلا يفاجئ القارئ بوقائع حربية رهيبة شهدتها ديار مليبار، حيث يقول:

فإن هذه قصة عجيبة

في شرح حرب شأنها غريبة

واقعة في خطة المليبار

ومثلهم لم يجر في تلك الديار

بين محب المسلمين السامري

وبين خصمه الفرنج الكافر

فهذه المعركة التي جرت على أرض مليبار حرب بين ملك كاليكوت السامري الذي يحب المسلمين وخصمه البرتغاليين الكفار.

لقد آثر الشاعر أن يصف الملك بأنه "محب المسلمين"، لما هناك ما يسوّغ ذلك ويصدق. فقد كان الملك يحب المسلمين أكثر مما يحب الكفار بني جلدته وملته، ويحترمهم احترامًا كبيرًا، يبذل قصارى جهده لتيسير حياتهم وتحقيق راحتهم، بل كانت حربه مع البرتغاليين في الواقع والأساس من أجل حماية المسلمين وتأمين تجارة العرب. وقد استدل الشاعر على صحة رأيه بمواقف الملك نفسه، حيث يقول (البيت٤٠٨):

وموت نفس واحد من مسلمين

أشد من عشر رجال كافرين

وقد أشار الشاعر إلى أنَّ نظم هذه القصيدة كان صعبًا. والمعروف أنَّ الإبداع النثري أصعب من الإبداع الشعري، أو أنَّ نظم الشعر أيسر من كتابة النثر، مع تقيد الشعر بالوزن والقافية وعدم تقيد النثر بهما؛ لأنّ الكاتب النثري عليه أن يختار القالب المناسب، في حين ليس على الشاعر إلا أن يملأ المادة في القالب الجاهز؛ والوزن والقافية. وإنما أشار إلى صعوبة النظم إذًا، فيما نظن، أنه يصف حربًا غريبة الأطوار متقلبة الأحوال، مديدة الأزمان، وكان عليه أن يكيف لقالب الشعر العربي كلمات وأسماء أعجمية تفر من ذلك القالب الشعري، ونجاحه في تطويع الكلمات الأعجمية للقالب الشعري العربي يدل على مهارته الشعرية وقوة آلته وعدته فيها.

الحياة هي العبادة:

هذه فائدة جانبية. لقد احتدمت عندنا في مليبار، في العقود الأخيرة مناظرات وجدل عنيف، أدى في بعض الأحيان إلى مواجهات دامية، حول معنى العبادة وسعة مدلولها! وهل تضم العبادة كل أعمال الإنسان، أم هي معاملات وممارسات، مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج؟ وكتبت المقالات وألفت الكتب، وألقيت مئات المحاضرات وعقدت المناظرات. ولكن أيًّا منها لم يأت بخير، ولا يحسم الأمر في تعيين معنى العبادة أو تحديد مدلولها. ولكن شاعرنا قاضي محمد الأول، الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي؛ أي قبل خمسة قرون، لم يتطرق إليه شوائب من الشك في أنَّ كل أعمال الإنسان عبادة إذا قصد بها وجه الله، حيث يقول (البيت:١١):

كذلك نظم المرء للإفادة
يكون عند الله كالعبادة

أغراض نظم القصيدة:

يشرح الشاعر الأغراض التي من أجلها نظم هذه القصيدة، وهي:

أولاً: يقسم بالله مالك الملوك على أنه نظم القصيدة ليُسْمِعَ أولئك الملوك والسلاطين المسلمين الذين تخاذلوا عن نصرة إخوانهم في الدين والعقيدة في هذه الديار قصة هذا الملك الكافر الذي يحب المسلمين، ويهب لنصرتهم، ويضحي من أجلهم بكل غال ونفيس، عساهم يراجعون موقفهم الآثم، ويفكرون في حرب البرتغاليين نصرة للمسلمين وذودًا عن حماهم وأعراضهم. وإذا لم يقدموا على الجهاد فلعلهم يعتبرون من قصة هذا الملك السامري في كاليكوت.

ثانيًا: أن تنتشر هذه القصيدة في بلاد الضاد ومواطن الشعر ومنابت الفصاحة، مهد الحضارات القديمة، الشام والعراق، ويعلم أهل تلك البلاد همّة هذا الملك السامري الذي يحب المسلمين ويحارب من أجلهم.

ثالثاً: الإشادة بفضائل الملك السامري وخدماته للمسلمين ومدحه. ويصف الشاعر مناقب الملك ويعدد فضائله، وهي : أنه

١) محب لديننا الإسلامي وللمسلمين.

٢) ناصر لديننا.

٣) مجري شرعنا .

٤) يأمر بالدعاء لسلطان المسلمين - الخليفة التركي.

٥) يرى أن المسلمين كلهم رعيته أينما كانوا.

٦) يحترم المسلمين احترامًا كبيرًا حتى لايقوم في الأعياد والمناسبات في الجانب الأيمن من الموكب إلا زعيم المسلمين شاه بندر (أمير الميناء وكبير التجار) وجماعة من المسلمين. ولكل هذه الأسباب وصفه الشاعر في أول القصيدة بأنه محب للمسلمين.

وفي الأبيات من ٢٣-٢٦ يشير الشاعر إلى قصة الملك المليباري الذي قسم بلاده بين الورثة، وأسلم هو وهاجر إلى الحجاز، وأنّ هذا الملك السامري خلفه على كاليكوت. وسوف نتناول هذه الحادثة في حينها في نهاية المقال.

وفي الأبيات (٢٧-٣٢) يصف الشاعر قوة بأس الملك السامري وعدد فرسانه، ونظام ملكه وتوارثه وهيكلة الحكام والقواد. ثم يفيض الشاعر في شرح مناقب الملك ومفاخره بأنه لا يأخذ المال بغير جرم، ولا يؤذي أحدًا ظلمًا، ولا يغير على صغار الملوك

والأقيال، وإن عصوه فإنه يعفو عنهم بقبول الهدايا. ولكن إذا عصاه ملك كبير لا يرضى عنه إلا بأخذ بلده كلّه أو جزء منه. وهذه عادتهم وديدنهم الموروث كابرًا عن كابر.

وكان العرب منذ جاهليتهم يفتخرون بقوتهم وشجاعتهم وبأنهم لا يُفاجئون عدوّهم، بل يخبرونهم بغزوهم إياهم، وهكذا نرى الشاعر يصف شجاعة ممدوحه الملك السامري وقدرته على مقارعة الأعداء وثقته في نفسه وقوته، حيث كان يخبر الأعداء بوقت الحرب وموعدها ليستعدوا لمواجهته ولقائه، ولا يفعل ذلك من ملوك مليبار إلا السامري لثقته بنفسه وقوته، في حين يُغير غيره من الملوك خدعة وعلى حين غرة. ويصفه الشاعر بسداد الرأي وحسن التدبير والشجاعة والصبر والعفو مع المقدرة.

ويعقد الشاعر مشابهة بين هذا الملك السامري وبين السامري الذي كان في قوم موسى عليه الصلاة والسلام. ويرى الشاعر تشابهًا بين السامريين في تقديس العجل وامتلاك شيء من الألواح كالتابوت فيه شيء من النصرة عند الحرب. وليس صحيحًا ما ذهب إليه الشاعر بأن السامري هو الذي جعل عبادة العجل مذهبًا. فالعجول كانت تعبد أيام موسى قبل أن يتخذ السامري عجلاً جسدًا له خوار من حلي بني إسرائيل. ويقول الشاعر (٤٥-٤٧):

وكان في زمان موسى سامري
كأن هذا جنس ذاك السامري
وهو الذي أول من تسببا
عبادة العجل فصار مذهبًا
له من الألواح كالتابوت شيء
فيه من النصرة عند الحرب شيء

ويرى الشاعر الدعاء للسامري واجبًا على المسلمين، حيث خاض معركة طويلة حامية الوطيس مع البرتغاليين من أجلهم ومن أجل حمايتهم، في حين تخاذل سائر الملوك والسلاطين المسلمين عن نصرة المسلمين بحرب البرتغالين ، بل الأدهى من كل ذلك وأمرٌّ أن بعضهم تصالحوا مع البرتغاليين الكفار.

وبعد هذه المقدمة يدعو الشاعر الناس إلى الاستماع إلى هذه القصة بقلب مفتوح وذهن حاضر، ويبدأ قصة حرب السامري مع البرتغاليين ويصف خصائصهم الخلقية والخلقية ليقبحهم ويبغضهم إلى النفوس، كما يصف شنيع أعمالهم وذميم خصالهم. يقول الشاعر:

وذاك أن أخبث الخلائق
المقتدى لأنجس الطرائق
أعدى عدو الله والرسول
ودينه وأمة الرسول
وهو الفرنجي عابد الصلبان
وساجد الصورة والأوثان
كريهة الهيئة والأشكال
أزارق العينين كالأغوال
يبول كالكلب ومن يطهّر
فخارج عن دينه فيزجر
ذو المكر والطغيان والخديعة (ى)
أبعد خلق الله عن طهارة (ى)

وهكذا وصفهم الشاعر بأخبث الصفات وأبغض النعوت، وعدهم أخبث الخلائق الذين يقتدون أنجس الطرائق، وهي النصرانية. وعدّهم أعدى عدو الله والرسول والدين الإسلامي وأمة الإسلام،

وهم الذين يعبدون الصلبان ويسجدون أمام الصور والأوثان . وعداوة البرتغاليين للإسلام والمسلمين لا تخفى على أحد، وهي واضحة وضوح الشمس في كبد السماء. ويكفي دليلاً على ذلك ما صرح به قائد الأسطول البرتغالي فاسكو دا غاما مخاطبًا للملك السامري:" نحن نحب كل شعوب العالم ما عدا المسلمين[٢٣]. ويعدّ الشاعر عيوبهم الخلقية، فهيئاتهم كريهة، وعيونهم مثل عيون الأغوال، يبولون قيامًا كما يبول الكلب، ولا يستنجون، بل يخرجون عن ملتهم ودينهم من يتطهر بعد البول، وهم ذوو المكر والطغيان. كل هذا ليقبحهم إلى القراء والسامعين.

ويتحدث الشاعر عن تقاطر البرتغاليين على مليبار كأسراب الجراد، يتقمصون ملابس التجار ويبطنون نية الفساد. وهنا نرى الشاعر يهاجم البرتغاليين ويدافع عن العرب، مع أن كلا الفئتين جاءت من أجل التجارة، وذلك أنَّ العرب إنما كانوا يقصدون التجارة محضًا، ولم يكن لهم نية الاستيلاء على شبر واحد من هذه الأراضي أو التدخل في شؤون البلد. وهذا الفرق هو الذي جعل البرتغاليين محتلين مستعمرين، وجعل العرب تجارًا مسالمين. وكان وصولهم إلى مليبار في ١٧ مايو١٤٩٨م/٩٠٣هـ. ولما نزل البرتغاليون على أرض مليبار، ومثلوا أمام الملك، قدموا له الهدايا استرضاء وتطييبًا للخاطر، ووعدوه بإعمار البلاد ودفع الأعداء والفساد. فصدق السامري قولهم وأعطى لهم بعض الصلاحيات.

يقول الشاعر:

فخصه من جملة البرايا

ورد قول سائر الرعايا

وحين قالوا إنه يخرب

بلادنا وقولنا مجرب

يشير الشاعر بهذين البيتين إلى أنَّ العرب، حين علموا بموقف السامري من البرتغاليين، وفدوا عليه ليحذروه من خبث نواياهم؛ لأنهم يعرفونهم منذ الحروب الصليبية. ولكن الملك لم يستمع إلى العرب، ولم يقبل نصحهم، ولم يلتفت إلى تحذيرهم. وكان ما حذر منه العرب المجربون، حيث أقام البرتغاليون كالعبيد حتى تجتمع قوتهم ويشتد ساعدهم، فبدأوا يقمعون البلاد ويعيثون فيها بالفساد، ليس في مليبار فقط، ولكن في الصين وسائر مناطق الهند وكمران وعدن وجدة وسيلان وغيرها من السواحل والأراضي العربية الساحلية أيضًا، وعمروا القلاع وشيدوا الحصون وجمعوا فيها العدد والآلات، كل ذلك لظلم العباد وملك البلاد. وكثر ظلمهم وتفاقم طغيانهم بما لا يحصى. وقد ذكر الشاعر بعض تلك الجرائم التي ارتكبها البرتغاليون في مليبار، بعد أن اعتذر من أنه لا يطيق حصرها .

كذاك أجرى ما جرى من أمره

ولا نطيق حصره بذكره

من حرق بلدان وهدم مسجد

وجعله للخلق مثل الأعبد

وقتلهم من غير ذنب صادر

وظلم كل وارد وصادر

ومن المساجد التي هدموها في كاليكوت مسجد المثقال الشهير الذي بناه النوخذة مثقال.

ثم يشرح الشاعر كيف أنَّ البرتغاليين أصبحوا شوكة في فم الملك السامري، وصدق فيه مثل العرب "سمّن كلبك يأكلك". يقول الشاعر:

ككلب من رباه لانتفاعه

وهو يعض دائمًا لرجله

وتجرأ البرتغاليون وتسوروا قصر الملك، ونهبوا ما فيه. ووقع بذلك الخلاف بينه وبين البرتغاليين، وخاض معهم حربًا استغرقت ثلاث سنوات. ولما تحققوا من الهزيمة جاؤوا إلى الملك يعتذرون ويطلبون الصلح والمعاهدة، ورضي الملك بالصلح، وأسكنهم بلاده وأذن لهم ببناء قلعة في كاليكوت. ولكنهم كانوا، كما قال الشاعر الفرزدق:

وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما

أخيين كانا أرضعا بلبان

كلما علا بناؤهم وقوي سلطانهم أبدوا الخلاف وسوء النيّة، وفرضوا الضرائب والعشور ومنعوا مراكب الحجاج إلى بيت الله الحرام. وكان ذلك من أعظم البلايا. وتآمروا على قتل السامري، واستدعوه إلى قلعتهم لقبول هدية تليق بمكانة الملك، ولكن الله خلصه بمنته - كما قال الشاعر. ووقع الخلاف بينه وبين البرتغاليين، وأدى إلى حرب استمرت سنتين، وحاصر السامري قلعتهم في كاليكوت، ونبشوا الخندق من الجهتين، ورموها بالمجانيق والمدافع. وقتل من البرتغاليين خلق كثير، حتى اضطروا لترك القلعة والهروب بأرواحهم. وكان فتح قلعتهم في كاليكوت عام ٩٣٠هـ.

وهرب البرتغاليون إلى كوتشي، واستجاروا بملكها الذي كان من المخالفين للسامري. وعاثوا فسادًا في البر والبحر، وآذوا المسلمين ومنعوا السفن المتجهة إلى مكة، وأحرقوا المساجد. ويؤكد الشاعر بأن من أهم أغراض البرتغاليين وأهدافهم إيذاء المسلمين وإذلالهم وردهم عن دينهم إن استطاعوا. يقول الشاعر:

عبارة الخطوط أن المسلمين

عبيده المملوك يا للمسلمين

وقصده الأعظم جعل المسلمين

في دينه أو قتلهم يا مسلمين

وفي الأبيات (١٣١-١٤٣) يشرح الشاعر محاولات الملك السامري وقادة المسلمين للاتصال بالسلاطين المسلمين يستنصرونهم ضد البرتغاليين الطغاة، وماذا كان مواقف أولئك الحكام. نقرأ للشيخ زين الدين آل مخدوم، صاحب "تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين"، إحدى الثلاثية الجهادية، يشرح هذه المحاولات:" وكان يراسل سلاطين المسلمين طلبًا لإعانتهم فلم ينفعوا، ولكن سلطان جزرات(Gujrat) السلطان محمود شاه، والد السلطان الفاضل مظفر شاه، وعادل شاه، جد علي عادل شاه الأعلى - نور الله مرقدهم - أمرا بتهيئة المراكب والغربان، ولم يوفقا للإخراج في البحر، وأما سلطان مصر قانصوه الغوري، رحمه الله، فقد أرسل من أمرائه الأمير حسينًا مع بعض العساكر في ثلاثة عشر غرابًا فوصل بها إلى ديو -(Diu) جزرات، وخرج منها إلى بندر شيول (Chaul)، ومعه ملك إياس، نائب ديو بغربانه، فلقي بعض مراكب الإفرنج، ووقعت الحرب، فأخذ غرابًا كبيرا لهم، وحصل النصر ورجع بما معه من الغربان إلى ديو، وأقام فيها شهورًا في أيام المطر. ثم وصل إليه بأمر السامري نحو أربعين غرابًا، كلها صغار من بلاد السامري وغيرها.

وأما الإفرنج - قاتلهم الله- فلما سمعوا باستقراره في ديو استعدوا وخرجوا في نحو عشرين مركبًا، ووصلوا إلى ديو فجأة، فلما بلغ إلى ديو خبر وصولهم أخرج الأمير حسين، الغربان التي كانت معه من غير استعداد، والمليباريون غربانهم، وملك إياس غربانه، والإفرنج - لعنهم الله - لما التقوا ما قصدوا إلا غربان الأمير حسين فأخذوا بعض

غربانه وطاح البواقي ورجع الملاعين - بتقدير الله تعالى وحكمه الغالب - إلى كشي غالبين، ولكن سلم الأمير حسين نفسه وبعض من كان معه وغربان ملك إياس والمليباريين.

ثم إنَّ الأمير المذكور رجع إلى مصر، فأخذت الغوري الغيرة، فأرسل نحو اثنين وعشرين غرابًا كبيرًا في استعداد تام، وأمر الأمير سلمان الرومي مع الأمير المذكور فوصلا بالغربان إلى بندر جدة المحروسة، ثم إلى بندر كمران، فتعلق الأمير حسين بحرب اليمن ونهب بلدانها، وعزم الأمير سلمان إلى بندر عدن، ثم رجع إلى جدة، بينه وبين الأمير حسين حرب فخرج الأمير سلمان من جدة؛ لكون الأمير حسين حارب المسلمين ونهب بلدانهم، فلهذا أمسكه سلطان الحجاز الشريف بركات فغرقه في البحر، وبعد ذلك وصل الخبر إلى جدة؛ بوقوع حرب بين الغوري وبين السلطان سليم شاه الرومي رحمهما الله وحصول ما حصل من انكسار الغوري وقتله ووقوع مملكته في قبضة السلطان سليم شاه رحمه الله، والله غالب على أمره[٢٤].

وفي تلك السنة وصل الأمير مصطفى الرومي من مخا إلى ديو جزرات بمدافع وأموال جزيلة، وكان الملك توغن بن ملك إياس متوليًا فيها من جهة السلطان بهادرشاه. وبعد وصوله إلى ديو جزرات وصل الإفرنج إليها بقصد أخذها فحاربهم الأمير مصطفى الرومي المذكور ورماهم بالمدافع العظيمة، فانهزموا بإذن الله خائبين ذليلين خائفين"[٢٥].

وقد وصل في تلك السنة (١٥٣٨م) سليمان باشا وزير السلطان سليمان شاه المذكور في استعداد عظيم تام في نحو مائة من الغربان والبرشات وغيرهما إلى بندر عدن، وقتل سلطانها الشيخ عامر بن داود رحمه الله مع بعض كبرائها وجعلها في قبضته، ثم وصل إلى جزرات فشرع في حرب ديو وهدم أكثر القلعة بالمدافع العظام السلطانية، ثم ألقى الله هيبة الإفرنج في قلب سليمان باشا فرجع إلى مصر، ثم إلى الروم، وذلك ما قدر الله سبحانه امتحانًا لعباده، ثم إنّ الإفرنج أصلحوا ما هدم من القلعة وأحكموها إحكامًا بليغًا تامًا[٢٦].

وهكذا كانت هناك محاولات غير موفقة من قبل السلاطين المسلمين في نصرة إخوانهم المسلمين في مليبار.

وفي الأبيات من ١٤٤ إلى ١٥٠ يصرح الشاعر كيف أنَّ المسلمين كانوا في أول الأمر يدًا واحدة ضد المعتدين البرتغاليين، وكيف أنَّ سياسة الاستعمار الماكر" فرق تسد" قد نجحت في مليبار، وكيف أدّى ذلك إلى الاقتتال بين المسلمين بعضهم مع بعض، وكيف اضطر الملك السامري إلى مصالحة الإفرنج والسماح لهم ببناء قلعة في الشاليات، حيث يقول:

فأولاً كان جميع المسلمين
على الفرنجي كيد محاربين
فصالح الإفرنج أهل كنَور
لأجل دنياهم وأهل تانور
وأخذوا الخطة في السفر
وقد جروا في البحر دون الضرر
فوقع الخلاف بين المسلمين
أي بعضهم بعضًا كمثل الكافرين
فأحرقوا مركب من قد سافروا
بخطه مصالحًا وكفروا

ثمت لما لم يفز بالفتح

ولم يكن بد بغير صلح

فالسامري أعطى له في الشاليات

بقلعة ثم بناها عاليات

ويستفيض الشاعر في وصف القلعة الإفرنجية في الشاليات؛ ليدل على منعتها وقوتها، وكيف أصبحت وكرًا لمؤامراتهم وأعمالهم التخريبيّة. وكان لهذه القلعة أهمية استراتيجيّة خطيرة، حيث تقع على منطقة شبه جزيرة تفتح إلى البحر في الأمام واليسار وإلى جانب النهر في اليمين. يقول الشاعر:

أيمنها أصاب ماء النهر

والجانب الآخر قرب البحر

أهمية القلعة الاستراتيجيّة:

يشير وليام لوغن إلى أهميّة موقع قلعة الشاليات، وتعمد البرتغاليون في اختيار الموقع، حيث يقول:" أراد السامري أن يصالح البرتغاليين، وتم الاتفاق على الضوابط والشروط، واختيار البرتغاليين موقعًا لبناء الحصن داخل أراضي السامري، وكان الموقع جزيرة الشاليات، وكان اختيار هذا الموقع عن تخطيط وتعمد لتحقيق الهدف الذي من أجله قام البرتغاليون بالحزم والشدّة، وبدون مساومة أو تنازل، منذ أيام غبرال، وهو القضاء على تجارة المسلمين"[٢٧].

ولما تمت القلعة واستوت على ساقها ازداد ظلم البرتغاليين وعدوانهم، يقول الشاعر:

والإفرنج إذ رأى المدافعا

وقوة القلعة والخلق معا

حام حوالي الظلم والتعدي

واصطاد للمسلم بالتصدي

فأكثروا الصولة والعنادا

وأظهروا الطغيان والفسادا

ويفصل الشاعر صور الظلم الذي لحق بالمسلمين، حيث يقول (١٦٩-١٩٦):

وهدموا مباني الإسلام

كذا محوا شعائر الأحكام

كم مسلم في حبسهم مقيدون

وأي محنة بها يعذبون

كم أيتموا بقتلهم ولدانا

كم أرملوا الإماء والنسوانا

كم من مراكب بنار أحرقوا

كم من سفائن ببحر أغرقوا

كم صيروا من مسلم نصارى

حتى من السادات كالأسارى

ومنعوا للمسلمين الطرقا

برًا وبحرًا لم يزالوا فرقا

فصار يمشي الناس فوق الجبل

لكن يمرون بها بالوجل

وأحرقوا المصحف والمساجدا

ثم بنوا لهم بها المعابدا

ويضرب المسلم بالنعال

وينجس المسجد بالأبوال

ونبشوا بظلمهم قبورا

وعمروا بها لهم قصورا

وهـــتـــكـــوا لحرمـــة الـــنســـوان
بـــــين محـــــــارم وزوج عـــــان
يـــقـــود في الأســـواق كـــالأســـارى
مـــعـــذبـــا مـــقـــيـــدا حـــيـــارى
يـأمـرهـم قـهـرًا بـحـمـل الـنـجس
وهـكـذا يـحـبسـهـم في الـنـجس
ويـــقـــتـــل المســـلـــم بـــالمنشـــار
وبـــعـضـــهـــم بـــكـــلب ونـــار
وتـــــارة بـــــالجبس والـــــدخـــــان
ومـــرّةً بـــالخيـــل والصـــبـــيـــان
ونـــزلـــة يـــطـــعـــمـــه بـــلـــحـــمـــه
ودفـــعـــه يـــهـــدفـــه لســـهـــمـــه
وكـــرة يـــخـــنـــقـــه بـــالحبـــل
وحـــالـــة يـــقـــطـــع كـــل وصـــل
وهـــكـــذا يـــغـــرقـــه في الـــبـــحـــر
مـــرتـــبـــطـــاً في الـــكـــيس مـــثـــل الأنجر
وبـــعـضـــهـــم يـــذبـــحـــه بـــالمدية
مـــن بـــعـــد مـــا يـــربـــطـــه كـــالـــهـــدية
ويـــربـــط المســـلـــم فـــوق الـــدقـــل
حـــيـــاً مـــنـــكـــســـا بـــإحـــدى الـــرجـــل
يـــفـــعـــل هـــذا في حضـــور المســـلـــمين
ولم يـــطـــيـــقـــوا مـــنـــعـــهـــم يـــا مســـلـــمين
ثـــم يـــبـــيـــع مـــيـــتـــهـــم لـــلـــمســـلـــمين
لـــيـــدفـــنـــوهـــم في قـــبـــور المؤمـــنين
وشـــــوش المراكب المكـــــيـــــة
وكـــان ذا مـــن أعـــظـــم الـــبـــلـــيـــة

وكـــل هـــذا نـــبـــذة مما جـــرا
مـــن ظـــلـــمـــه وكـــلـــه، فـــقس تـــرى

ومن ظلمهم أنهم قتلوا " كتى إبراهيم مركار؛ لأنَّ زورقًا يحمل الفلفل والزنجبيل اتجه إلى جدة دون إذنهم، كيلا يتكرر مثل ذلك الصنيع الذي يسبب لهم خسائر كبيرة"[٢٨]. يحدث كل هذا ولم يكن الملك السامري مستعدًا لمحاربة البرتغاليين، فحاربهم حينًا وصالحهم أحيانًا، وتفاقم ظلمهم. وكان كل من يستشيره الملك ينصحه بالصبر والتواني لقلة حيلته وعدته.

ويخص الشاعر من بين البرتغاليين نصرانيًّا اسمه أندوني ويسترسل في الجرائم البشعة التي ارتكبها ذلك الخبيث، حيث يقول:

وكـــان مـــن جـــمـــلـــتـــهـــم نصـــراني
كـــلـــبـــا عـــقـــورا أنـــدوني
ومـــعـــه جـــمـــاعـــة قـــد ظـــلـــوا
يـرعـون مـرعـى الـظـلـم حيث حلوا
فـــنـــال مـــنـــهـــم ضـــرر عـــظـــيـــم
وتـــــعـــب لمســـــلـــــم جســـــيـــــم
وقـــتـــلـــوا الحجـــاج والمســـافـــريـــن
كـــذلك كـــل مســـلـــم والـــكـــافـــريـــن

وكانت في المدينة الساحلية الغربية لميبار كنّور (CANNUR) مملكة إسلامية عريفة تعرف باسم "أراكل". وهناك قصص وأساطير حول نشوء هذه المملكة الإسلامية. الكتب التاريخيّة القديمة في كيرالا ترى أنّ مهابلي بن شريديوي، أخت الملك جيرامان برومال الذي اعتنق الإسلام، وهاجر إلى مكة، هو الذي أسس هذه المملكة، حيث توفي الملك برومال في الجزيرة العربية، ولما عاد الوفد المرافق

له أخبروا أخته بوفاة الملك ودعوها إلى الإسلام، فاعتنقت هي وابنها مهابلي، وغير اسمه إلى محمد علي. وازدهرت هذه المملكة وأصبحت ذات قوة ونفوذ لتجارتها البحرية. وقد دوّن وليام لوغن أسماء الملوك الذين خلفوا محمد علي المؤسس، وهم محد علي، وحسن علي، وعلي موسى، وكنحي موسى، وعلي موسى. واستولى هذا الأخير على جزر المالديف(Maldive Islands) في ١١٨٣-٨٤م[٢٩]. وكان لقبهم" علي راجا" (راجا = الملك) نسبة إلى المؤسس، أو علي راجا، أو آزي (بحر) راجا - نظرًا لهيمنتهم البحرية. ومهما يكن أصل المملكة وقصة نشوئها فإنّ الأسرة لا تزال باقية في كنّور، بحيث تخلف ملكة كلما هلكت ملكة، كما أنَّ قصورهم ومساكنهم باقية تشهد على عزة الإسلام وسؤدده في هذه الديار.

ولما رأى ملك أراكل في كنّور ما يعانيه إخوته المسلمون في مليبار من الاضطهاد والتعذيب على أيدي البرتغاليين كتب إلى الملوك والسلاطين في الهند يحثهم على جهاد البرتغاليين نصرة للمسلمين." ثم إنَّ المقدم الكبير، مقدم كنّور علي آذراجا، وفقه الله للخيرات، لما رأى تمادي ما حل بالمسلمين من الضعف والفقر الشديد، وتعطل التجارات بسبب الإفرنج الملاعين، أرسل إلى السلطان الأعظم والشاه الأكرم علي عادل شاه - نصره الله ووفقه لما يرضاه- أوراقًا فيها الشكاية عما حلّ بمسلمي مليبار من ظلم الإفرنج وإيذائهم والاستعانة في تخليص هؤلاء المستضعفين من شرورهم بالجهاد في سبيل الله، مع هدايا فألقى الله سبحانه في قلبه أن يتهيّأ لحرب بندر كووه، فإنها دار مملكتهم في الهند، وكانت أولاً من بنادر جدّه الأعلى، رحمه الله. وأيضًا كان قد وقع اتفاق بين عادل شاه ونظام شاه- وفقهما الله لرضاه- عقب تخريب (Vijaya Nagram)، وقتل راعيها أن يفتحا كووه وشيول، وعقب وصول أوراق آذراجا إلى عادل شاه خرج هو ووزراؤه وحطوا فوق كووه وشرعوا في حربهم ومنع الأقوات عنهم، وأرسل عادل شاه إلى السامري فخرج هو ووزراءه وحطوا فوق شروعه في حرب كووه والتمس منه إعانته ومنع القوت عنهم مع أنَّ السامري ورعاياه مخالفوهم ومحاربوهم قبل ذلك سنين عديدة، ووصل قاصده إليه وهو في شاليات مشتغلاً بحربهم، وحط نظام شاه ووزراؤه على شيول وشرعوا في الحرب وكسروا حصارها بالمدافع الكبار، وكان فتحها ممكنًا، ولكنه تهاون بسوء الظن بعادل شاه وتعظيم أمر الإفرنج وترك الحر وصالحهم"[٣٠].

وأخيرًا اعتزم الملك السامري على حرب البرتغاليين، والاستيلاء على قلعتهم في الشاليات، أو شرح الله صدر الملك لذلك - على حد قول الشاعر، وجند الجنود، ووكل أمر الحرب إلى وزيرين.

يقول الشاعر:

فأرسل العسكر مع وزيرين

وسلم الأمر إلى الوزيرين

فالأول الأصيل للوزارة

والثاني وهو ناظر الخزانة

إلى حصار الشاليات عازما

مع جنود كافرًا ومسلما

ولما علم البرتغاليون بوصول جيش السامري، أو أخبرهم بذلك ملك تانور(Tanur) المتعاطف مع البرتغاليين، وإن كان متحالفًا مع السامري، تحصنوا داخل القلعة، وحاصره جيش السامري، وأحرقوا ما حولها من الأسواق والمباني، ويصور

الشاعر حالة القلعة بعد ما أحرقت الأسواق والمباني حولها، مستعيرًا الأسلوب القرآني، حيث يقول:

فأحرقوا في ساعة ما حولها

فأصبحت مثل الصريم يالها

فبقيت القلعة فردًا وحدها

كشجرة قد قطعت أغصانها

واستغرقت الحرب أيامًا وأسابيع دون أن تحقق شيئًا من نصر، وكان ذلك - كما يرى الشاعر - لأنّ ملك تانور الذي كان ذا وجهين، يظهر الولاء للسامري ويتعاطف مع البرتغاليين، كان قد رشى وزراء السامري. واغتاظ السامري لما لم تحقق الحرب نصرًا، وكان يغير الوزراء كل أسبوع. ولكن الوزراء كانوا يتعبون ويضعفون لشدة الحرب وكثرة القتل.

ولكن أم الملك العاقلة فطنت إلى خطورة الموقف فأرسلت إلى زعماء المسلمين تحثهم على التفكير في سير الحرب ومآلها، وأن ينظروا في العواقب الوخيمة إذا ما خسر السامري الحرب مع البرتغاليين. واجتمع قادة المسلمين في مسجد المثقال، وكان منهم:

وكان سيدي أحمد القمامي

مجاهدًا في جملة المقادم

وشيخنا المشهور ذو الأسرار

أبو الوفا محمد الشطار

والشاه بندر عمر العنتابي

وسائر الرؤسا أولو الأنساب

ومعهم المخدوم ذو الإتقان

عبد العزيز المعبري الفناني

وهكذا قاضي قضاة المسلمين

عبد العزيز الكاليكوتي كالمعين

ومنهم مقدم الشجعان

كنجي علي المشهور في البلدان

فأحضروا أعيان كل بلد

والوزراء جميعهم في المسجد

فتشاوروا مع غرة العساكر

وكتبوا الأحوال نحو السامري

وكتبوا للسامري الذي كان في كدنغلورا يشرحون الأوضاع الحقيقية للحرب، ويطالبونه بالحضور ليتولى قيادة الحرب بنفسه، وكتبت أمه كذلك تؤكد ضرورة حضوره. ولما وقف السامري على حقيقة الأمر جاء من فوره، واستبشر الناس بقدومه واستبسلوا في الحرب. ووزع السامري الأسلحة على عامة الناس القادرين على القتال، وأمر بحبس كل من يرفض المشاركة في الحرب، كما أعلن الجوائز التشجيعية، وصالح الملوك والأقيال في المناطق المتاخمة وعيّن للجميع أعمالهم، وعين القراء ونذرت النذور إلى أم القرى والمدينة المنورة، وجاء الناس إلى الحرب أفواجًا، يقول الشاعر:

وهكذا لكل جنس عينا

شغلاً لهم وحاجبًا وخازنًا

وللذي يجرح أو يموت

عيّن حاسبًا لديه القوت

.....

وعين القراءة للقراءة

كذلك الشيوخ للإجابة

وعين المنـــذور في أم الـــقـــرى

كـذا لـطـيـبـة بـهـا خير الـورى

وأحضـر الـكـهـان والمرصـديـن

وصـاحب الـدعـوة والمنـجـمين

وأمـر الـوزرا بـبـذل الأمـوال

لمن يـجـود روحـه عـلـى الـقـتـال

مـن قـتـل الـنـفس وجـا بسـيـفـه

يـلـبسـه دمـلـجـة بـكـفـه

مـا عـد يـومًـا درهـمًـا ولا ذهب

لـكـن يـعـد الـكيس فـهـو مـن عجب

فصـار يـأتـي الـنـاسُ مـثـلـمـا الـنـمـل

حين رأى انـكـسـار ظـرف الـعسـل

وهجم الناس جميعًا هجمة مستميتة، وأبدوا شهامة وحبًّا في الشهادة، وشارك جميع الفئات بوسعهم في الحرب والقتال:

حـتـى يصير يـرمـى بـالحجـر

مـن خـنـدق إلى الحصـار والمدر

واستخدمت كل الحيل وجميع الطاقات وأحكم الحصار، وعين بعض المسلمين في الزوارق يجوبون البحر لمنع وصول الإمدادات الخارجية، وبخاصة من غوا. ولما انتشر خبر الحرب توافد الناس من كل صوب لنصرة السامري.

ويرسم الشاعر صورة حيّة نابضة لكل دقائق الحرب وجلائلها، والحيل المستخدمة. وقفلت الطرق البحرية بالسلاسل ومدت الأسلاك في حافتي النهر، ولم يجد الأعداء منفذًا إلى المنطقة المحصورة:

فـالمسـلـمـون احترسـوا في الـبـحـر

بـأغـربـات وكـذا في الـنـهـر

في الجانب الـغـربـي حـال الـنـهـر

وفـيـه خـلـق لـلـجـهـاد شـمـروا

....

لأنّ كـل أغـربـات المسـلـمين

واقـفـة عـلـى الـطـريـق حارسين

ويـؤكـد الشـاعـر مـرارًا وتـكـرارًا حب الملك السامري للمسلمين، حيث يقول:

عـادتـه لا يـتـلـف الـعساكـرا

إلا إذا أبصـر فـيـه ضـررا

إذ مـوت شـخص واحـد مـن عسكـره

أوجـع مـن سـهـم أتـى بصـدره

ومـوت نـفس واحـد مـن مسـلـمين

أشـد مـن عشـر رجـال كـافـريـن

ويشرح الشاعر آثار الحصار على البرتغاليين وسوء حالهم داخل القلعة، حيث يقول:

فـبـيـنـمـا هـم عـلـى ذي المهـمّـة

إذ عـدم الـطـعـام مـن في الـقـلـعـة

لـكـثرة الخلـق وسـد الـطـرق

فصـار أكـلـهـم لسـدّ الـرمـق

.....

فـأكـلـوا الـفـارة والـغـرابـا

والجلـد والـهـرة والـكـلابـا

كـذلك الحمـار وابـن آوى

وذبـح بـعضـهـم لأكـل أهـوى

وعرضوا الصلح مرارًا وطلبوا الأمان، ولكن السامري لم يوافق على ذلك:

فانقطع الرجال لهم من صلح

ولم يروا من حبسهم من فتح

فطلبوا لنفسهم أمانًا

ولم تكن فاقتهم بيانًا

ولما كرروا الطلب للأمان استشار الملك قواد جيشه، فنصحوه بقتلهم جميعًا، ولكن الملك أبى ذلك، ورأى الأمان خيرًا من القتل. ونشب بينهم خلاف حاد حول الموضوع. كان القواد يرون أنه لا مفر من قتلهم بعد الظفر عليهم. وأصرَّ الملك على الأمان، ولم ير فائدة في قتلهم، بل رأى الذكر الحسن في السماح لهم بالخروج من القلعة. وقال: لا يتسع ملكنا إذا قتلناهم، وإن قتلناهم لأنهم يخالفوننا في الدين والاعتقاد، حيث هم نصارى، ذلك عار. يقول الشاعر:

ثم جرى الخلاف في العساكر

وبين بعض الوزراء والسامري

في شأن إرسال الفرنجي سالمًا

من بعد ما صاروا لنا مغانمًا

فقال كل قتلهم جميعا

أحسن من إرسالهم جميعًا

وبعضهم يقول إنَّ حبسهم

أنفع من أن تقتلوا نفوسهم

....

ثم أجاب السامري للأُمرا

كذا لكل عسكر والوزرا

والله إني لآ أخون العهدا

ولا أخاف غير ربي أحدا

وقتلنا الأسير عار عندنا

ومثل هذا لا يكون دأبنا

ولا يزيد ملكنا بحبسهم

ولا يجي موتاكمو بقتلهم

إذ كل من يراهم يذكرنا

ويعرفوا بقولهم مقدارنا

ولو رضيتم كونهم عبيدنا

في دينهم كان أمرًا دنا

.....

فقبل النيار قول السامري

شيء وغيرهم من سائر العساكر

وأخيرًا وافق العسكر ونزلوا على راية. وسمح للبرتغاليين بالخروج، وكانوا يركبون في مراكب المسلمين. وتم إخلاء القلعة، ودخلها السامري وجمع التحف والنوادر وضمها إلى المخزن، ثم سمح للجيوش بالنهب، وجمعوا كل ما فيها، وكان فيها شيء كثير وملاح.

ثم دعا عسكره للنهب

فكان ذلك الوقت وقت العجب

وكان في القلعة أشياء كثير

ولا يجيء ضبطها بالتعبير

وكان هذا الفتح المبين في

وفتحها في يوم الاثنين جرى

سادس عشر من جمادى الأخرى

من فضل ربنا الغني في سنة

تسع وتسعين وتسعمائة

وكـان الابـتـداء في سـلـخ صـفـر

مـن ذلك الـعـام فـتـم بـالـظـفـر

وأمر بهدم القلعة، ونبشوا كل شيء منها، حتى الأسس والقواعد. هذا يدل على مدى غيظ السامري وشدة ضرر القلعة على مملكته وملكه. يشرح وليام لوغن مدى الضرر الذي كانت قلعة البرتغاليين في الشاليات تجلبه للسامري والمسلمين - بخاصة، والحركة التجارية في كاليكوت، ويقول: إنَّ السامري " دمّر القلعة من الأساس دون أن يترك حجرًا واحدًا، وحمل كل شيء إلى كاليكوت، وأعطى المسلمين ما احتاجوا إليه لبناء المسجد الجامع الذي كان البرتغاليون قد هدموه"[٣١]. واستغرق الهدم نحوًا من سنة.

فـهـدمت حـتـى اسـتـوت بـالـرمس

كـأن هـذي لم تـكـن بـالأمس

وأخـرج الأحـجـار مـن أسـاسـهـا

حـتـى شـربـنـا المـاء مـن أسـاسـهـا

فـكـان شـغـل هـدمـهـا نـحـو سَـنـة

فصـارت الـقـلـعـة حـلـمًـا في سِـنـة

وهنا نرى الشاعر يستوظف إحدى المحسنات اللفظيّة البديعة؛ الجناس، بين سنة - فتح السين وسِنة بكسرها. ولا يخفى ما للجناس من الجمال في الأسلوب.

ولما أخبر الملك أنّ البرتغاليين كانوا قد هدموا مسجدًا لبناء قلعتهم أعطى الملك جزءًا من القلعة لإعادة بناء المسجد.

ثـمت لما أخبروا لـلـسـامـري

خـراب بـيت الـلـه مـن ذا الـكـافـر

سـلـم بـعـض قـلـعـة بـالـقـصـد

لـلـمـسـلـمين لـبـنـاء المسـجـد

وقد ورد في الأبيات ٢١٤-٢١٧ من القصيدة أنَّ عادل شاه وسلطان حيدر آباد النظام تعاهدا على محاربة البرتغاليين والاستيلاء على قلعتهم في غوا. ولما تم للسامري الاستيلاء على قلعة الشاليات فإذا نبأ يترامي إلى آذان المليباريين، وهو أنّ عادل شاه تراجع عن المعركة وتصالح مع البرتغاليين. ويصاب الشاعر من هذا النبأ بخيبة أمل كبير ويأس مرير، فيغضب عليه ويصف عمله بأنه مخالفة لأوامر الله وخرق للعهد الذي أخذه مع الملك السامري . يقول الشاعر:

وحـيـنـمـا يـتـم هـدم الحصـن

قـد جـاء بـالأخـبـار أهـل السـفـن

بـأن مـن غـزا لـوجـه الـلـه

أعـنـي بـه السـلـطـان عـادل شـاه

صـالـح مـع عـدوه الإفـرنج

مـن غير عـذر لاحـق أو مـلـجـي

مخالـفًـا لـربـه في عـهـده

ونـاسـيًـا لخطـه ووعـده

فـالسـامـري أهـدى إلـيـه بـالجرس

كـان بـه الإفـرنج حصـة جـرس

تـذكـرة لـكـل مـن يسـمـعـهـا

وغيرة لـلـخـلـق إذ يـنـظـرهـا

وهكذا صب الشاعر جام غضبه على عادل شاه، ووصفه بالخيانة وخرق الاتفاق المبرم مع السامري.

قصيدة الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين للقاضي محمد بن عبد العزيز الكاليكوتي دراسة وتحليل

ولكن الشيخ زين الدين آل مخدوم يرى أنَّ عادل شاه معذور، حيث يقول:" وأما عادل شاه فمعذور، فإنَّ كوو بعيدة عن عسكره، والنهر حائل بينهما، وهي حصينة منيعة، فيها حصون كثيرة لا يقدر عليها إلا بتوفيق من الله العزيز، مع أنَّ بعض وزرائه اتفقوا مع الإفرنج على أخذه وتولية غيره من أقاربه الذي كان في كوو عند الإفرنج، فأحسن بذلك عادل شاه وخاف وخرج من المعسكر، فلما استقر طلبهم وحبسهم وعذبهم وأزال نعمهم"[٣٢].

ويعود الشاعر إلى موضوعه، ويعدد مرة أخرى مناقب الملك السامري وفضائله، ويدعو الملوك إلى الاقتداء به، حيث يقول:

فهل سمعتم مثل هذا الحرب

فيما مضى في عجم أو عرب

يا معشر الملوك والسلاطين

وسادة الأمراء والأساطين

فاعتبروا أيا ملوك المسلمين

بملك من الملوك الكافرين

ويرى الشاعر أنَّ كثيرًا من الملوك والسلاطين المسلمين سمعوا أخبار اضطهاد المسلمين وتعذيبهم في مليبار، ولكنهم لم يلتفتوا إلى المسلمين المستضعفين، ولم يحركوا ساكنًا، ولم يهبّوا لنصرة إخوانهم المسلمين. ولكن الملك الكافر السامري هو الذي حارب ضد البرتغاليين من أجل حماية المسلمين. يقول الشاعر:

فما رأينا أحدًا ملتفتًا

من الملوك المسلمين مصلتًا

في دفع هذه الكفرة الملاعين

عن هؤلاء الضعفاء المسلمين

والسامري مع كفره لديننا

حاربهم وصرف الخزائنا

وأخذ الحصن وغير السامري

لم يفعلوا شيئاً بهذا الكافر

وهذا ليس صحيحًا جملة وتفصيلا، حيث عرفنا جهاد عادل شاه ونظام شاه وآذراجا وتعاونهم فيما بينهم في محاربة البرتغاليين وكسر شوكتهم، ولكن تلك الجهود لم تثمر في إنقاذ المسلمين من براثن البرتغاليين في مليبار. ويختم الشاعر ذكر محاسن الملك السامري وفضائله باعترافه بأن:

وكل ما ذكرته من أمره

فذاك معشار عشير عشره

إذًا لم يذكر الشاعر إلا نزرًا يسيرًا من فضائل السامري ومحاسنه.

وفي ختام القصيدة يثير الشاعر قضية لم تحسم، وهي قصة الملك المليباري، الذي شاهد معجزة انشقاق القمر، ولما تبين له حقيقة الأمر وجليته الخارقة أسلم وهاجر إلى الحجاز ليقابل الرسول. يقول الشاعر:

وإنما وفق هذا السامري

للحرب معه بين كل كافر

بسرّ دعوة النبي المطهر

لخاله يوم انشقاق القمر

لما رأى انشقاقها من بلدته

سافر خفية إلى زيارته

حتى أتى إلى النبي وآمنا

بالله والنبي فصار مؤمنا

وفي رجوعه إلى مليبار
ليجري الإسلام في تلك الديار
أصابه الموت من الظفار
كذا أتى في أشهر الأخبار
وقبره هناك مشهور وفيه
جميع ما قد كان حيًا يشتهيه

هذا ما قاله الشاعر بصدد قصة الملك المليباري الذي هاجر للقاء الرسول، مؤكدا بأنّ القصة صحيحة على أشهر الأخبار

ونوجز ما ورد في المصادر التاريخيّة المتوافرة لدينا حول قصة إسلام الملك المليباري وظهور الإسلام في هذه البلاد المليبارية، تاركا حق الترجيح للقارئ المتابع

انشقاق القمر: معجزة الرسول الخارقة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ❖ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ❖ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾[٣٣] (القمر:١-٣)، يقول ابن كثير: " وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر وقع في زمان النبي (ﷺ)، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات"[٣٤]. ويقول أيضًا:" فيما يرويه البيهقي عن عبد الله قال: انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار قريش، أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم، فهو سحر سحركم به، قال: فسئل السفار، قال: وقدموا من كل جهة فقالوا: رأينا[٣٥]، وهناك روايات مماثلة في كتب التفسير تثبت خارقة انشقاق القمر، وأنه كان معجزة لصدق رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام. يروي الباحث المليباري محمد كويا:" أنّ بعض السفار العرب شاهدوا في الهند عمارة كتب عليها أنها بنيت يوم انشق القمر، كما كتب مثل ذلك على مبنى في الصين"[٣٦]. وهذا يدل على أنَّ معجزة انشقاق القمر لم تكن محصورة على سماء الحجاز، بل كان عامًا شوهد في الآفاق.

وكل ما عندنا من الأدلة لإثبات تاريخ هجرة الملك المليباري إلى الحجاز ولقائه الرسول وتلقينه(ﷺ) إياه الشهادتين روايات شعبية متواترة، وكتابات متضاربة تفتقد إلى التحقيق والتوثيق.

يقول الباحث مجمد كويا: " وكان ملوك كيرالا القدماء مهتمين بالعلوم الفلكيّة. ومن الذين شاهدوا انشقاق القمر من أهل كيرالا الملك بانا برومال(Banaperumal)، الذي كان يحكم منطقة كدنغلور (Kodungallur)، فجمع المنجمين في قصره، وقص عليهم ما حاره من انشقاق القمر. وقالوا له بعد البحث والتنجيم: إنَّ ذلك معجزة وقعت في بلاد العرب. ولم يزل الملك يتصل بالتجار العرب الذين ما فتئوا يفدون إلى كيرالا في تلك الآونة، ويستطلعهم حقيقة هذه المعجزة. وحين استيقن من شرحهم وإيضاحهم صحة ما ذهب إليه المنجمون سجل ذلك عنده في الصفائح النحاسية، واعتنق الإسلام، وذهب سرًّا مع التجار العائدين إلى مكة لمقابلة الرسول(ﷺ)"[٣٧]. ويقول المؤرخ الكندي "Ronald E Miller:" وهناك روايتان مشهورتان بين المسلمين في كيرالا. تقول أولهما: إنَّ بداية اعتناق جيرمان برومال (CheramanPerumal) الذي كان حاكمًا في كدنغلور كانت رؤيا رآها في المنام أنَّ القمر قد انشق بمكة إلى فرقتين، بقيت إحداهما في السماء والأخرى وقعت على الأرض، ثم اجتمعتا وصارتا قمرًا واحدًا، ثم احتجب. وبعد عدّة أشهر

مر بكدنغلور وفد من المسلمين كانوا يذهبون لزيارة آثار قدم آدم بجبل في سرنديب. وهناك قصوا على الملك برومال كيف أنَّ الرسول محمدًا (ﷺ) اجتذب إلى دينه عددًا من الكفار بمعجزة انشقاق القمر. وعلى أساس هذا الإيضاح قرر برومال أن يعتنق الإسلام. واتفق سرًّا أن يرافق الوفد في عودتهم إلى مكة. وتنازل عن تجارته وقسم مملكته بين ورثته - حكام المناطق، وكتب معهم معاهدة يوهمهم بذلك أنه سيعود قريبًا، وسافر إلى مكة مع الوفد، واستقر هناك، وغير اسمه إلى عبد الرحمن السامري. وما لبث أن عزم على العودة إلى كيرالا لبناء المساجد لدينه الجديد، إلا أنه أصيب بمرض خطير في أثناء السفر، فرجا من أصحابه المسافرين إن يواصلوا سفرهم للدعوة إلى الكتاب الرابع، وسلمهم رسائل إلى حكام المناطق في مليبار، يوصيهم فيها استقبال هؤلاء الرسل استقبالاً حسنًا، ويقطعوا لهم أراضي لبناء المساجد، ويخصصوا ضياعًا لنفقاتها، كما رجا هؤلاء الرسل ألا يبوحوا بخبر مرضه.

ومات جيرامان وأقبر في ظفار على الشاطئ العربي عام ٨٢٢م- كما أرخ له زين الدين - وكان هذا الوفد بقيادة مالك بن دينار، وكان فيه أعضاء من أسرته وثلاثة من الدعاة. وبعد مدة من وفاته- ثماني سنوات في رواية- وصل الوفد إلى مليبار، وسلموا حكام المناطق توصيات برومال وأخفوا خبر وفاته. واستقبلوا استقبالا حسنا، وتجولوا في المنطقة يشرحون العقيدة، وبنوا تسعة مساجد. وعين مالك بن دينار في كل مسجد بناه قاضيًا من أسرته، ثم عاد إلى جزيرة العرب.

والرواية الثانية تقول إنَّ رؤيا الملك برومال كان متزامنًا مع معجزة الرسول، وذهب الملك إلى جزيرة العرب، وقابل الرسول، ولقنه الرسول الشهادتين. واختار المسلم الجديد لنفسه اسم تاج الدين، وتوفي بمكة عام ٦٢٤م. والتفاصيل الباقية متشابهة"[٣٨].

يقول لا لاهمس أم.أي. الذي كان نائب رئيس المجلس الهندوسي لعموم الهند في كتابه جغات غورو (Jagath Guru) الذي صدر في ١٩٢١م"[٣٩]. إني ذهبت إلى مليبار للاطلاع على أسباب ثورة الموبلاريين، فوجدت في معبد هندوسي هناك لوحة باللغة السنسكريتية، قرأتها ببالغ الاهتمام، فإذا هي قصة إسلام ملكها، وهي - على لسان الملك - كما يأتي: لقد دهشت في ليلة من الليالي لمشاهدة انشقاق القمر، فجمعت المنجمين وسألتهم عن تأويله، فقالوا: أيها الملك! لقد ولد في جزيرة العرب رجل عظيم، والدين الذي أتي به يجلب السعادة في الدنيا والآخرة، وبسببه وقعت هذه الخارقة. فأرسلت عددًا من العلماء للوقوف على حقيقة ذلك الرجل العظيم، وأتوا مكة وتحدثوا إلى من بها وأخبروني بعد عودتهم أنَّ ما قاله المنجمون حق، ولما أصغيت إلى شرحهم أعجبت به وأحسست باحترام كبير نحو ذلك الرجل العظيم، وأصبحت واحدًا من تلاميذه". ويقول سي. غوبالن ناير الذي كان نائب المحافظ في مليبار من قبل البريطانيين": إنه لما سأل القاضي المعظم بكاليكوت السيد حسن بن محمد بن علي شهاب الدين با علوي: هل عندكم من علم دقيق عن هجرة برومال أخرج كتابًا عربيًا قديمًا، وترجم لي منه ما يأتي: التقيا في نهار يوم الخميس ٢٧ شوال، وما لبث أن وقع الملك على أقدام الرسول الكريمة يقبلهما مع فرح مفرط أكثر من فرح الرضيع لرؤية أمه. فرفعه الرسول إليه وعانقه، ورجعا إلى منزل الرسول يتجاذبان أطراف الأحاديث، ويحمدان الله، وأضافه الرسول أكثر مما يضيف العرب بعضهم

بعضا، ثم لقنه الرسول الشهادتين فنطق هو وأصحابه الشهادتين، ولما رأى أبو بكر الصديق كل هذا سأل متعجبًا: من هذا يا رسول الله؟ أجاب رسول الله : هذا ملك كيرالا التي يأتي منها الفلفل والزنجبيل"[٤٠]. وقد سماه الرسول" تاج الدين". وليس هذا نص ما قاله الرسول(ﷺ)، ولا ما قرأه القاضي بكاليكوت السيد حسن بن محمد بن علي شهاب الدين باعلوي، إنما هذا ترجمة عربية لقول لا لاهمس. ومن ثم لا معنى لاعتراض بأنَّ اسم (كيرالا) لم يكن معروفًا في أيام الرسول، وإنما كان يطلق اسم (الهند) ، ويراد به الهند عامة، ومليبار غالبًا. وفي تقديمه لكتاب" كيرالا في التاريخ" لصاحبه زيد محمد يقول المؤرخ الكيرالي المعروف كيساري أي. بالاكرشنا بلاي[٤١]: " وقد كتب الرسول رسائل إلى جميع ملوك أفريقيا عام ٦٢٨م، وكان من ضمن تلك الرسائل رسالة إلى كيرالا جيرامان برومال (جنكا برومال أو سنكا ورمان ٦٢١-٦٤٠م). وهذه الرسالة هي الأساس لما يعتقد بأن برومال التقى الرسول في عمره السابع والخمسين". ويقول الأب الدنماركي الذي عمل في كنيسة كوتشن في إحدى رسائله[٤٢]:

" إذا كان لنا أن نصدق ببعض الوثائق العربية هنا، فإنَّ دين محمد قد انتشر هنا منذ زمن بعيد، وتقول تلك الوثائق: إنَّ جيرامان برومال كان يحكم هذه البلاد يوم كان محمد في عمره السابع والخمسين، وجاء رسل محمد، ولقي برومال، ودعاه إلى الدين الإلهي، ولما سمع ذلك خرج برومال للقاء محمد.

ومات برومال في السفر، وقبل وفاته كتب رسائل إلى الأقيال في كيرالا. وكان قد كتب فيها أن يسمح للعلماء بالدعوة إلى الدين، وتعليم التلاميذ، وبناء المساجد. ولأنَّ كل هذه التوصيات نفذت بإخلاص انتشر دينهم" الكاذب" ورسخ في البلاد في مدة قصيرة قياسية. ودليل ما قلت، هناك قصص أخرى متعارضة، ولا أضيع وقتك بذكرها". يقول كرشنا أيار[٤٣]: "التجارة الخارجية في البلاد، على كل حال، كانت تمول وتدار على يد العرب، لا اليهود ولا النصارى، وإن ساعدوا على الاتصال بالغرب ..الرسول أعطاهم دفعًا قويًّا في أعمالهم السياسية والبحرية، ومع مرور قرن على وفاته كانوا قد أسسوا مستعمراتهم ومراكزهم التجارية في المغرب غربًا وجزر الطيب والصين شرقًا. وحسب كتاباتهم، قد أتوا أولا إلى كيرالا في أيام الملك جيرامان برومال، وكان الملك نفسه أول المعتنقين لدينهم".

وقد روى الحاكم في المستدرك " حدثنا علي بن جمشاد العدل، حدثنا العباس بن الفضل الاسفاطي، ومحمد بن غالب، قالا: حدثنا عمرو بن حكام، حدثنا شعبة، أخبرني علي بن زيد قال: سمعت أبا المتوكل يحدث عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: أهدى ملك الهند إلى رسول الله(ﷺ) جرّة فيها زنجبيل فأطعم أصحابه قطعة قطعة، وأطعمني منها قطعة"[٤٤].

وهناك روايات شعبية كثيرة وشهادات فولكلورية متواترة تثبت صحة هجرة الملك المليباري ولقائه الرسول، ولكن اختلافات في التفاصيل وتضارب في الأسماء والألقاب.

وتقول إحدى الأغاني الفلكلورية[٤٥]:

ذهب برومال مع أهل السفينة والأعوان،

نزلوا في شحر مكلا دون تواني،

وكان النبي محمد يسكن في جدة آنذاك،

التقى به هناك وأسلم،

وسمّي بتاج الدين،

وجاء ١١ سيدًا من هناك برسائل برومال وأختام،

وبنوا مساجد بإذن من الملك،

مسجد ماداي، مسجد عبد الرحمن،

مسجد موتام، مسجد فندرينة،

مسجد شهاب الدين، وهكذا ١١ مسجدًا،

أليس كذلك يا مدينة ماداي،

يقول :K.M.Panikkar" ولا نستطيع أن نحكم ببطلان الأسطورة التي تقول إنَّ برومال الأخير اعتنق الإسلام، وتخلى عن عرشه، وهاجر إلى مكة ولم يرجع منها"[٤٦].

وينكر لوغن أن تكون هجرة الملك المليباري متزامنة مع عهد الرسول، وأنه التقى الرسول ولقنه الرسول الشهادتين، وأسماه تاج الدين، ويعلل ذلك بأوهام[٤٧] لا تثبت أمام العقل السليم والمنطق السديد والحجج والبراهين، ويرى:

١. لو كان ذلك في حياة الرسول(ﷺ)، لا بد أن يرد ذلك في كتب السيرة، وأن يذكر اسمه الجديد بين الصحابة.

٢. لم يكن اسم " تاج الدين" معروفًا أيام الرسول.

ولكن هذه المزاعم لا تصمد أمام الأدلّة والمنطق، وذلك من عدّة وجوه:

١. يقول الإمام الشهرزوري: قلت: وقد روينا عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد الصحابي إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين[٤٨]. وهل نتصور الأعداد الهائلة من الذكور والإناث الذين صحبوا رسول الله أو وفدوا عليه. وهل يعقل أن تُثبت أسماؤهم جميعًا، وبخاصة أنَّ معظم من دون أسماء الصحابة هم من المتأخرين.

٢. الصحابي، على تعريف آخر ينسب إلى إمام التابعين سعيد بن المسيب:" الصحابة لا تعد...إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين". وعلى هذا فإن الملك المليباري لا يكون صحابيًّا؛ لأنه لم يصحب الرسول إلاّ مدة وجيزة . ومن ثم عدم وجود اسمه من بين الصحابة لا ينفي هجرته أو لقاءه الرسول(ﷺ).

٣. كثيرًا ما تقول كتب السيرة والحديث إنَّ رجلاً غريبًا أتى النبي(ﷺ) يسأل عن كذا وكذا، أو أنه (ﷺ) دعا إلى الإسلام رجلاً لم يسم فأسلم على يده. ولا مانع من أن يكون الملك المليباري أحد أولئك الغرباء.

٤. أن كل من أرخ لإسلام الملك المليباري قد ذكر أنه غيّر اسمه بعد إسلامه، فلا غرابة أن يشتبه الاسم الجديد على المؤرخين.

٥. أن الملك المليباري بعد أن مكث مع الرسول(ﷺ) عدة أيام خرج يتجول في أنحاء الجزيرة يزورها ويتعرفها، أو عاد إلى اليمن - على رواية، وربما لم يصادف الرسول(ﷺ)، ولم يحضر مجلسه مرة أخرى، وكان نسيًا منسيًا.

كل هذه التفسيرات منطقية معقولة، وهناك تضارب بائن في تحديد زمن هجرة الملك المليباري إلى الجزيرة للقاء الرسول(ﷺ). ويرى المؤرخ المليباري محمد محمد كنحي" أنَّ الملك بدأ سفره ليلة ٧ من رجب سنة خمس قبل الهجرة، ووصل الجزيرة ليلة ٢٧من شوال من العام نفسه، والتقى الرسول(ﷺ)"[٤٩] كما يرى " أنَّ برومال وصل مكة

سنة خمس قبل الهجرة، وقضي ١٧ يومًا مع الرسول(ﷺ)، ثم ذهب مع الملك اليمني حبيب بن مالك إلى قصره[٥٠]. وهناك من يرى أنَّ الملك التقى الرسول في عمره السابع والخمسين، وكان(ﷺ) في المدينة، وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة"[٥١]. ويقول لوغن:

" وأخيرًا ، قد علم من المعلومات التي أدلى بها مواطن عربي قريب من المكان، أنَّ قبر برومال المذكور موجود في ظفار على الساحل العربي قريبًا من شحر، التي قيل إنه نزل بها. والأمر يحتاج إلى مزيد من التوثيق. ولكن يقال إنه قد نقش على القبر" إنه وصل إلى ظفار في ٢١٢هـ، ومات في ٢١٦هـ. وهذا التاريخ يوازي ٨٢٧-٨٣٢م. والعام المليباري (Kollam Era) يبدأ في ٨٢٥م، في ٢٥ أغسطس، أي الموسم الذي تبدأ السفن المتجهة إلى الجزيرة العربية والخليج رحلاتها. ويمكن أن تكون بداية العام المليباري هي اليوم الذي بدأ فيه الملك جيرامان برومال- آخر ملوك مليبار- رحلته، خرج متجهًا إلى الجزيرة العربية حسب التفاصيل المتقدمة"[٥٢]. ويقول الشيخ زين الدين آل مخدوم: " وأما تاريخه فلم يتحقق عندنا، وغالب الظن أنه كان بعد المئتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية[٥٣]. والمشهور أنّ الاسم المنقوش على القبر هو" عبد الرحمن السامري"، إلا أنَّ الحاج الشيخ محمد أحمد، إمام مسجد النور في كوتشي يؤكد بأنه في زيارته لقبر الملك المليباري في ظفار قبل أكثر من ثلاثين سنة، رأى مكتوبًا عليه" تاج الدين ملك الهند"[٥٤].

وهذا التضارب والاختلاف في تفاصيل الأحداث وتواريخها هي التي حدت ببعض الباحثين إلى القول إنَّ هناك ملكين من ملوك مليبار أسلما وهاجرا إلى الجزيرة العربية، أحدهما بانا برومال، المعاصر للرسول، والآخر جيرمان برومال، الذي هاجر في أوائل القرن الثالث الهجري، الذي قبره هناك في ظفار مكتوبًا عليه أنه لرجل وصل إليها عام ٢١٢هـ وتوفي في ٢١٦هـ.

ومهما تكن حقيقة الملك المهاجر إلى الجزيرة العربية وزمنه ولقاؤه الرسول فإنّ مما لا شك فيه أنَّ الإسلام عرف في هذه الديار منذ القرن الأول للهجرة، وانتشر فيها انتشارًا واسعًا، وأقيمت هنا وهناك مساجد يذكر فيها اسم الله، وتكونت حول تلك المساجد تكتلات سكانيّة مسلمة. يقول المؤرخ المليباري زيد محمد " ولا صحة للمزاعم القائلة إنَّ المسلمين أتوا إلى كيرالا بعد الملك جيرامان. والواضح أنَّ الإسلام قد انتشر في كيرالا أيام الرسول نفسها، وأنَّ العرب كانوا من قبله يحتفظون بعلاقات تجارية مع كيرالا"[٥٥].

المآثر الإسلامية في مليبار:

لم يتفق المؤرخون المسلمون وغير المسلمين على رأي واحد في تاريخ وصول الإسلام إلى هذه الديار، التي كانت تعرف بالمليبار. ولكن النصوص التاريخيّة تدل دلالة قطعيّة على أنَّ الإسلام وصل واستقر في هذه الديار في حياة المصطفى(ﷺ) نفسه - كما سبق أن قلنا. وقد عثر على قطعة أثرية في مسجد في قرية ماداي(MADAYI) التي تبعد عن مدينة كنّور شمالي مليبار، ٢٠ كم، نقش عليها" إنّ هذا المسجد بني في سنة خمس"[٥٦]. وقد سجل في لوحة في مسجد جيرمان - أول مسجد في الهند- أنه بني في ٦٢٩م، أي ٧ للهجرة، كما كتب على باب المسجد الجامع القديم في جالونغال- فنان (Chaliungal - Ponnani) الذي كانت تقام فيه الجمع والصلوات قبل أن يبني الشيخ زين الدين آل مخدوم الجامع الكبير في فنان بأنه بني في عام ٨

للهجرة[٥٧]. وقد نقش على القطعة الرخامية في واجهة المسجد القديم في مادي تاريخ١١ رجب عام ٢١هـ، كما نقش على عارضة باب المسجد القديم في كاسر غود (Kasaragode) أنه تم بناء المسجد يوم الاثنين ١٢ رجب عام ٢٢هـ، وأنَّ ملك بن أحمد بن مالك قد عين قاضيًا فيه"[٥٨]. وتدل الوثائق والمستندات المحفوظة في قصر الأسرة المالكة في كنّور أن المملكة قامت في ١٥ للهجرة[٥٩]. ويوجد بين محفوظات القصر الملكي للأسرة الملكية" أراكل"(Arakkal) درهم طبع عليه تاريخ ٣٥هـ[٦٠]. ويقول المصلح المليباري الكبير المرحوم سي. أن. أحمد مولوي: إنه ذهب عام ١٩٥٠م إلى إركور(Irikkur)، وذهب به بعض أصدقائه إلى مقابر المسلمين فيها، حيث توجد قبور غارقة في القدم، وقالوا له: إنّ هناك قبورًا توجد عليها كتابات عربية ، فذهب معهم وقرأ ما نقش على أحد القبور، فإذا هو: إن صاحبه مات سنة خمسين للهجرة. وكان الخط هو الخط الكوفي الذي كان سائدًا في الجزيرة العربية في القرن الأول الهجري[٦١]. ويقول الدكتور سي. كي. كريم " توجد قطعة أثرية على شاطئ النهر القريب من المسجد القديم في شريكرشنا بورم (Shri Krishnapuram) نقش عليها: أن عدي بن حاتم وصل إليها مع مائتين من المسلمين أيام الرسول(ﷺ)، وأنه مات سنة ٧٤هـ"[٦٢]. ولكن عدي بن حاتم - في رواية أخرى- وفد على النبي(ﷺ) سنة تسع في شعبان، وقيل: سنة عشر، وكان نصرانيًّا، وقيل بل أسر المسلمون أخته سفانة بنت حاتم فأسلمت وعادت إليه فأخبرته ودعته إلى رسول الله (ﷺ) فأسلم وحسن إسلامه... ولما توفي رسول الله (ﷺ) قدم على الصديق وقت الردّة بصدقة قومه، وثبت على الإسلام ولم يرتد وثبت قومه معه. توفي سنة سبع، وقيل تسع وستين، وله مائة وعشرون سنة. قيل مات بالكوفة أيام المختار"[٦٣]. وقد عثر في منطقة كودامنعالم (Kodamangalam) في جنوبي مليبار على قطع من النقود لحكام مصر طبعت في القرنين السابع والثامن الميلاديين[٦٤]. تدل هذه الآثار على أنَّ الإسلام وجد في هذه الديار من وقت مبكر.

ويرى معظم المؤرخين أنَّ انتشار الإسلام في هذه الديار كان على يد الداعية البصري مالك بن دينار، إلا أنهم لم يتفقوا على تاريخ قدومه إلى مليبار. والمعروف عن مالك بن دينار، الواعظ البصري المشهور، أنه أبو يحيى مالك بن دينار، كان مولى لامرأة من بني سلمة بن لؤي، وكان من كبار الزهاد والوعاظ، وكان يكتب المصاحف. روى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين. توفي نحو سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م. ويرى لوغن أنَّ الإسلام كان معروفًا في هذه الديار قبل مجيء مالك بن دينار، حيث يقول:" لم يكن ليتمكن مالك بن دينار والوفد المرافق له - مع كل الامتيازات الخارقة- أن يؤسسوا كل هذه المساجد في هذه المناطق، في مدة قياسية قصيرة، لولا أنَّ الأرض كانت مهيأة قبل ذلك إلى حد ما"[٦٥]. ويقول الشيخ زين الدين آل مخدوم عن أول ظهور للإسلام في هذه البلاد:" وذلك أنَّ جمعًا من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد مليبار يقال لها كدنكلور(Kodungallur)، وهي مسكن ملكها، في مركب كبير بعيالهم وأطفالهم وطلبوا منه الأراضي والبساتين والبيوت وتوطنوا فيها، وبعد ذلك بسنين وصل إليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ، قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان، فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم وسألهم عن الأخبار، فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد (ﷺ)، وبدين الإسلام،

وبمعجزة انشقاق القمر، فأدخل الله سبحانه وتعالى في قلبه صدق النبي (ﷺ)، فآمن به، ودخل في قلبه حب النبي (ﷺ)، وأمر الشيخ بأن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة موضع أثر قدم آدم عليه السلام ليخرج هو معهم، ومنعه أن يحدث بهذا السر المليباريين، ثم إنهم سافروا إلى سيلان، ورجعوا إليه فأمر الملك الشيخ بأن يُهيىء مركبًا لسفره من غير أن يعلم به أحد، وكان في البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء، فقال الشيخ لصاحب مركب أنا وجماعة من الفقراء يتوقعون أن يركبوا في مركبك، فرضي بذلك صاحب المركب، ولما قرب وقت السفر نهى الملك أهل بيته ووزارئه أن يدخل أحد منهم عليه مدة سبعة أيام، وعيّن في كل بلدة من بلدانه شخصًا، وكتب لكل كتابًا مفصلاً بتعيين الحدود حتى لا يتجاوز أحد عن حده الذي عينه، والحكاية في ذلك مشهورة عند كفرة مليبار أيضًا، وكان ملكًا متواليًا في جميع مليبار، وحدها من الجنوب كمهري (Kannyakumari)، ومن الشمال كانجركوت (Kassaracode)، ثم إنّ الملك ركب مع الشيخ والفقراء في المركب ليلاً ، وسار المركب حتى وصل فندرينة (Pantalayini- Kollam) فنزل فيها ولبث يومًا وليلة، ومنها سارالمركب إلى درمفتين(Dharmapattanam)، ونزل فيها ولبث ثلاثة أيام، ومنها سار المركب حتى وصل إلى شحر، ونزل فيها هوومن معه، وبعد مدة طويلة رافقه جماعة في السفر معه إلى مليبار لعمارة المساجد وإظهار دين الإسلام فيها، ثمَّ إنَّ الملك مرض واشتد مرضه فوصى أصحابه الذين رافقوه، وهم شرف بن مالك، وأخوه من الأم مالك بن دينار، وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك وغيرهم، بأن لا يتهاونوا في السفر إلى الهند بعد موته، فقالوا:" نحن لا نعرف موضعك، ولا حد ولايتك، وإنما أردنا السفر بصحبتك"، فتفكر الملك ساعة، وكتب لهم ورقة بخط مليبار عين فيها مكانه وأقرباءه، وأسماء ملوكها، وأمرهم أن ينزلوا في كدنكلور أو درمفتن أو فندرينة أو كولم .(Kollam)وقال لهم لا تخبروا بشدة مرضي ولا بموتي إن مت أحدًا من المليباريين، ثم إنه توفي رحمه الله رحمة واسعة.

وبعد ذلك بسنين سافر شرف بن مالك، ومالك بن دينار، ومالك بن حبيب، وزوجته قمرية، وغيرهم مع الأولاد والأتباع إلى مليبار في مركب، فوصل إلى كدنكلور، ونزلوا فيها، وأعطوا ورقة الملك المتوفى إلى الملك الذي فيها، وأخفوا خبر موته، فلما قرأها وعلم مضمونها أعطاهم الأراضي والبساتين على مقتضى ما كتبه، فأقاموا فيها وعمروا فيها مسجدًا، توطن فيها مالك بن دينار، وأقام ابن أخيه مالك بن حبيب مقامه لبنائه المساجد في مليبار، فخرج مالك بن حبيب إلى كولم بماله وزوجته وبعض أولاده وعمر بها مسجدًا، ثم خرج منها، بعد ما خلى زوجته فيها، إلى هيلي ماراوي(Ezi Mala)، وعمر بها مسجدًا ثم إلى باكنور(Pakanur)، وعمر بها مسجدًا، ثم رجع منها إلى منجلور (Mangalore)، وعمر بها مسجدًا، وخرج إلى كانجركوت (Kasarcode)، وعمر بها مسجدًا، وخرج منها إلى هيلي ماراوي، وأقام بها ثلاثة أشهر، ومنها إلى جرفتن (Shrikandapuram)، وعمر بها مسجدًا، ومنها إلى (Chaliyam)، وعمر بها مسجدًا، وأقام بها مدة خمسة أشهر، ومنها إلى كدنكلور عند عمه مالك بن دينار، ثم سافر منها إلى المساجد المذكورة، وصلى في كل مسجد منها، ورجع إلى كدنكلور شاكرًا الله وحامدًا له لظهور دين الإسلام في أرض ممتلئة كفرًا.

ثم خرج مالك بن دينار ومالك بن حبيب مع الأصحاب والعبيد إلى كولم، وتوطنوا فيها غير أن

مالك بن دينار وبعض أصحابه، سافروا إلى شحر وزاروا قبر الملك المتوفى فيها، ثم سافر مالك إلى خراسان وتوفي فيها، ورجع مالك بن حبيب مع زوجته بعد ما ترك بعض أولاده في كولم إلى كدنكلور، وتوفي فيها هو وزوجته"[٦٦]. ويعلق الشيخ زين الدين على هذه الرواية وتاريخ قدوم الوفد ويقول:" هذا خبر أول ظهور دين الإسلام في بلاد مليبار، وأما تاريخه فلم يتحقق عندنا، وغالب الظن أنه كان بعد المئتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية"[٦٧]. هذا ما يراه الشيخ زين الدين آل مخدوم، صاحب إحدى الثلاثيات الجهادية " تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين". وأما صاحب الفتح المبين، الذي نحن بصدده، الشيخ محمد القاضي الأول فيرى أنَّ إسلام الملك المليباري والحوادث التاريخيّة التالية كانت في عهد الرسول(ﷺ)، حيث يقول : (٥٢٣-٥٢٩):

إنما وفق هذا السامري
للحرب معه بين كل كافر
بسر دعوة النبي المطهر
لخاله يوم انشقاق القمر
لما رأى انشقاقه من بلدته
سافر خفية إلى زيارته
حتى أتى إلى النبي وآمنا
بالله والنبي فصار مؤمنا
وفي رجوعه إلى مليبار
ليجري الإسلام في تلك الديار
أصابه الموت من الظفار
كذا أتى في أشهر الأخبار
وقبره هناك مشهور وفيه
جميع ما قد كان حيًا يشتهيه

وقد أشار الشيخ زين الدين آل مخدوم إلى قصة جماعة من فقراء المسلمين وفدوا إلى سيلان لزيارة موضع أثر قدم أبينا آدم عليه السلام، قد فصل الرحالة ابن بطوطة الحديث عن أثر قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح. وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضًا، وطولها أحد عشر شبرًا"[٦٨].

ونخرج من هذا البحث المطوّل في ظهور الإسلام في مليبار أنّ الإسلام ظهر وانتشر في مليبار منذ القرن الأول الهجري، وغالب الظن أنه كان في حياة الرسول (ﷺ) نفسها، وأن كان هناك جوانب غامضة في تفاصيل القصة والرواية.

وفي ختام القصيدة يرجو الشاعر من كل قاريء وسامع ألا يبخل في الدعاء له، وأن يعفو عنه بعض الهفوات والضرورات الشعرية، ويستر العيوب التي يراها فيها. ويصلي ويسلم على المصطفى محمد وآله وصحبه والتابعين الأخيار إلى يوم القيامة.

يا سامعًا لهذه الحكايتي
لا تبخلن لناظم بدعوتي
وهو راجي عفو ربه العزيز
محمد بن القاضي عبد العزيز
الكالكوتي الشافعي فالله
في كل حال دائمًا يرعاه
فرحم الله امرأً فيها نظر
بعين إنصاف وعيبها ستر

وإن تجد بعض ضرورات القريض — محمد وآله الأبرار

فلا تعب إذ فيه أقوال عريض — وصحبه والتابعي الأخيار

وأفضل الصلاة والسلام — ما اختضب السيوف بالدماء

على النبي المصطفى التهامي — ونزل النصرة من سماء

●●●

الحواشي

١- عظماء مليبار (بالمليبارية): ٣٣

٢- تراث المسلمين العظيم (بالمليبارية):١٥٧.

٣- التراث الإسلامي:٢٤.

٤- معجم التاريخ الكيرالي:١٥٣.

٥- ثقافة كيرالا:٢٨.

٦- رحلة ابن بطوطة:٥٥٣-٥٥٤.

٧- المصدر السابق:٥٥٠.

٨- A History if South India (Malayalam).P.500.

٩- فتوح البلدان: ٤٢٠.

١٠- الصحابة في كيرالا:٨٣.

١١- مساجد كيرالا دليل التجانس: ٥١.

١٢- الصحابة في كيرالا:٩٨.

١٣- مجلة الفيصل، ع٣٤٨، ١٤٢٦/ ٤٢.

١٤- Sarvavinjana Koshm(Malayalam Encycliopaedia), Vol.3,P.105

١٥- Wiliam Logan, M.C.S, Malabar, Vol. 1, P: 285.

١٦- نيلاكنداشاستري:٩٣.

١٧- ب.ك. غوبالاكرشنان: ٥٨.

١٨- المصدر السابق:٥٨.

١٩- دراسات في تاريخ العرب القديم:١٦٣.

٢٠- المصدر السابق:١٢٣.

٢١- رحلة ابن بطوطة:٥٦١.

٢٢- عظماء مليبار:٣٥.

٢٣- تاريخ المسلمين في كاليلكوت:٥٣.

٢٤- تحفة المجاهدين:٣٨-٣٩.

٢٥- المصدر السابق:٤٩.

٢٦- المصدر السابق:٤٩.

٢٧- Wiliam Logan, M.C.S, Malabar, Vol. 1, P: 375.

٢٨ المصدر السابق:٣٧٦.

٢٩- المصدر السابق:٤٠٨.

٣٠- تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين:٦٠.

٣١- Wiliam Logan, M.C.S, Malabar, Vol. 1, P: 381.

٣٢- تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين:٦١.

٣٣- القمر:١-٣.

٣٤- تفسير ابن كثير:٤/٢٦٢.

٣٥- المصدر السابق:٢٦٣.

٣٦- تاريخ المسلمين في كاليكوت: ٣٤.

٣٧- المصدر السابق: ٣٤.

٣٨- Mappila Muslims of Kerala, P:47.

٣٩- Hagath Gurn, Karnatak,

٤٠- تراث المسلمين المليباريين العظيم: ١٠٦-١٠٧.

٤١- تاريخ المسلمين في كيرالا:٥٠.

٤٢- Astudy of Kerala's Life and Culture in the Eighteenth Century Based on Jacob Canter Visshers, Letters, P: 142.

٤٣- The Zamorins of Culicut,P: 52.

٤٤- المستدرك للحاكم، كتاب الأطعمة:٤/١٥٠، رقم الحديث ٧١٩٠.

٤٥- مساجد كيرالا دليل التجانس: ١٧.

٤٦- معركة الاستقلال في كيرالا:١٠-١١، المساجد في كيرالا:١٢.

٤٧- Wiliam Logan, M.C.S, Malabar, Vol. 1, P:225.

٤٨- علوم الحديث لابن الصلاح - النوع التاسع والثلاثون - معرفة الصحابة رضي الله عنهم.

٤٩- مساجد كيرالا دليل التجانس: ٦٢.

٥٠- المصدر السابق: ١٣١.

٥١- Astudy of Kerala's Life and Culture in the Eighteenth Century Based on Jacob Vanter Visshers, Letters, P: 142.

٥٢- Wiliam Logan, M.C.S, Malabar, Vol. 1, P:230.

٥٣- تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين:٢٩.

٥٤- الصحابة في كيرالا:١١٩.

٥٥- تاريخ المسلمين في كيرالا:٥٣.

٥٦- الصحابة في كيرالا:٥٢.

٥٧- مساجد كيرالا دليل التجانس: ٥٣.

٥٨- ملحق خاص بمناسبة رمضان، مجلة ماتربومي،١٩٩١.

٥٩- مساجد كيرالا دليل التجانس: ٥١.

٦٠- تاريخ المسليمن في كيرالا:٥٣.

٦١- تراث المسلمين المليباريين العظيم: ١٧١.

٦٢- الصحابة في كيرالا: ٦٩.

٦٣- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين:١/٢٥٣.

٦٤- Loan Words in Malayalam. P:325.

٦٥- Wiliam Logan, M.C.S, Malabar, Vol. 1, P:230.

٦٦- تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين: ٢٦ -٢٨.

٦٧- المصدر السابق:٢٩.

٦٨- رحلة ابن بطوطة:٥٨٩.